المكتبة التاريخية
بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٧

سلاجقة إيران والعراق

للدكتور عبد النعيم حسنين

DS
27
.H37
1959

الناشر: مكتبة النهضة المصرية

المكتبة التاريخية
بإشراف الدكتور احمد عزت عبد الكريم

٧

سلاجقة إيران والعراق

للدكتور عبد النعيم محمد حسنين

كلية الآداب — جامعة عين شمس

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا — القاهرة

١٩٥٩

الطبعة الأولى
١٩٥٩

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة المؤلف ... ... ١ — ٤

الفصل الأول : العالم الإسلامى قبيل ظهور السلاجقة ... ... ٥ — ١٥

تمهيد ٥
السامانيون ٧
الغزنويون ٩
البويهيون ١١
الخلافة العباسية ١٣
الخلافة الفاطمية ١٤

الفصل الثانى : قيام دولة السلاجقة ... ... ١٦—٣٠

تعريف بالسلاجقة ١٦
ظهور قوة السلاجقة ٢١
النزاع بين السلاجقة والغزنويين ٢٤
إعلان قيام دولة السلاجقة ٢٨

الفصل الثالث : سيطرة السلاجقة على إيران والعراق ٣١—٤٦

سيطرة السلاجقة على إيران ٣١
سيطرة السلاجقة على العراق ٣٨

صفحة

الفصل الرابع : السلاجقة فى أوج قوتهم ... ٤٧ — ٨٤

التنازع حول العرش ٤٧
التنافس على الوزارة ٥٠
أهداف السلاجقة ٥٢
النزاع بين السلاجقة والروم ٥٥
نهاية ألب آرسلان ٦٠
تجدد النزاع على عرش السلاجقة ٦٢
فتوحات السلاجقة ٦٤
ظهور الإسماعيلية ٧٠
مصرع نظام الملك ٧٤
موت ملكشاه ٧٩
الدور الذى مثله نظام الملك على مسرح الدولة السلجوقية ٧٩
دولة السلاجقة بعد ملكشاه ٨٣

الفصل الخامس : تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم ٨٥ — ١١٠

النزاع حول العرش ٨٥
التنازع على الوزارة ٩١
قيام الفتن ٩٣
فتنة الإسماعيلية ٩٧
الحروب الصليبية ١٠٢

الفصل السادس : انقسام دولة السلاجقة ... ١١١—١٣١

النزاع حول العرش ١١٢
سلاجقة خراسان ١١٤
الدولة القره خطائية ١١٦
الدولة الخوارزمية ١١٨

صفحة

سلاجقة العراق ١٢٢

النزاع حول عرش سلاجقة العراق ١٢٦

النزاع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة ١٢٨

الفصل السابع : انتهاء دولة سلاجقة المشرق .. ١٣٢–١٣٩

فتنة الغز ١٣٣

موت سنجر ١٣٧

الفصل الثامن : ضعف سلاجقة العراق ... ١٤٠–١٥١

نفوذ الأتابكة ١٤٠

تطور الأحداث خارج الدولة ١٤٧

الفصل التاسع : انهيار دولة سلاجقة العراق ... ١٥٢–١٦٠

النزاع بين طغرل الثالث وعمه قزل آرسلان ... ١٥٢

النزاع بين طغرل وابن عمه قتلوغ اينانج ١٥٧

الحرب بين طغرل وعلاء الدين تكش حاكم خوارزم ١٥٨

مصرع طغرل ١٥٩

الفصل العاشر : مظاهر الحضارة فى العصر

السلجوقى ١٦١–٢٠٣

١– الناحية السياسية – نظام الحكم ... ... ١٦١ – ١٦٨

السلطنة ١٦١

الوزارة ١٦٣

الحجابة ١٦٦

الكتابة ١٦٧

٢– الناحية الإدارية ... ... ١٦٨ – ١٧٣

حكام الأقاليم ١٦٨

صفحة

الدواوين ١٧٠

الشرطة ١٧١

٣- الناحية الدينية ... ... ١٧٢ - ١٨٤

المعتزلة... ... ... ١٧٤

أهل السنة ١٧٦

الصوفية ١٧٨

٤- الناحية الاجتماعية ... ... ١٨٤ - ١٩٢

طبقات الشعب ١٨٤

مظاهر الحياة الاجتماعية ١٨٨

٥- الناحية الثقافية ... ... ١٩٢ - ١٩٦

مراكز الثقافة ١٩٢

دور الكتب ١٩٤

التقدم العلمى ١٩٥

٦- الناحية الفنية ... ... ١٩٧ - ٢٠٣

فنون النقش والتصوير والمعمار ١٩٧

فن الأدب ١٩٩

ثبت بأسماء المراجع ٢٠٤-٢١٠

تصويب ٢١١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

شهد التاريخ حركات اندفاع شعوب وجماعات ، خرجت من مواطنها الأصلية ، إلى حيث استقرت فى أرض جديدة صنعت فيها أوطانها ، وحملت معها عناصر من مقومات حياتها الأولى ، فاحتفظت منها بما ينفعها فى حياتها الجديدة ، واقتبست — فى الوقت نفسه — مما وجدته صالحاً للبقاء والتطور من مقومات الحضارة الأصيلة فى الأرض الجديدة .

من هذه الحركات الكبرى التى غيرت وجه التاريخ خروج العرب من الجزيرة العربية — ابتداء من القرن السابع — واندفاعهم شرقاً وغربا ، وتكوين الأوطان العربية ، وخلق الحضارة العربية ، ومن هذه الحركات أيضاً غزوات الشعوب الجرمانية لأوربا وما ترتب عليها — على طول المدى — من تكوين الدول الأوربية والحضارة الأوربية الحديثة .

ومن هذه الحركات (العالمية) خروج الشعوب التركية من مواطنها الأصلية وتسربها — أحياناً — واندفاعها — أحياناً أخرى — إلى غربى آسيا وشرقى أوربا ووسطها ، وهى حركة امتدت من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر . وكانت نقطة التحول — أو الانطلاق — حين اعتنق الترك الإسلام منذ وصل إلى ديارهم ، وباعتناقهم الإسلام انهار (الحاجز) الذى كان يقف بينهم وبين المسلمين بل بينهم وبين التاريخ العالمى ، فأصبحت بلادهم (دار إسلام) وبدءوا يتسربون إلى ممالك المسلمين يدخلون فى خدمة ملوكها وأمرائها وقوادها ، ويمدُّون هذه الممالك بقوة جديدة ، ريثما تواتيهم الظروف ليثبوا على كراسى الملك وينشئوا لهم دولا .

وهكذا رفع الإسلام من قدر الترك ، فأدخلهم فى نطاق التاريخ العالمى ، وهم مهّدوا لأنفسهم فيه مكاناً عليّا ، حين جعلوا من الإسلام الراية التى التفوا حولها ، فأنعشوا قوة الإسلام (السنىّ) فى دار الإسلام ، ثم مضوا يركزونها على معالم الطريق الذى ساروا فيه فى البحر والبر حتى وسط أوربا .

* * *

وهذا الكتاب القيِّم الذى يسرنى أن أقدمه اليوم فى (المكتبة التاريخية) يؤرخ لقبيلة من هذه القبائل التركية ، فى

تحركها غرباً إلى أراضى الدولة الإسلامية ، واستقرارها فى هذه الأراضى ، والتفافها حول زعامة بيت من بيوتها – بيت سلجوق – واستغلالها أحوال البلاد التى نزلتها واصطناعها أساليب الملك ، وبناء الدول ، وحارب السلاجقة من تصدّى لهم وأقرّوا من أقرّ لهم بالسيطرة والزعامة ، وكان هدفهم البعيد توحيد هذه الرقعة الكبيرة فى دار الإسلام الممتدة من بلاد ما وراء النهر إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وليس من الضرورى أن تتم الوحدة المنشودة بإقامة الحكم الواحد ، وإنما قد تكفى السيطرة وبسط النفوذ وتكتل القوى وإقامة الوحدة الدينية العامة تحت لواء السنة ، والالتفاف حول مثل أعلى ، هو الجهاد المقدس لنشر راية الإسلام .

وتحققت العناصر الأساسية فى البرنامج السلجوقى ، فسيطروا على إيران والعراق ، وهيمنوا على الخلافة العباسية ، وحاربوا الفاطميين والإسماعيليين تأميناً للوحدة المذهبية ، ثم تابعوا رسالة العرب فى قتال الروم ، فاجتازوا الثغور والعواصم ، وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها إلى أرض تركية إسلامية ، فمهدوا للترك العثمانيين السبيل إلى القضاء على دولة الروم والاندفاع فى الأراضى والبحار الأوربية .

ولكن الرقعة الواسعة من الأراضى التى حاول السلاجقة

السيطرة عليها تألبت على الوحدة ، وكانت عوامل التشتت — وخاصة حين ضعفت اليد المسيطرة — أقوى من عوامل الوحدة ، ففشا النزاع حول العرش وحول الوزارة ، وأخفقت الجهود التي بذلت لتأمين الوحدة المذهبية ، وأهم من ذلك أن الاستقرار كان يعوز هذه المنطقة الكبيرة من آسيا ، فإن تحرك هذه القبائل والجماعات كان مستمراً ، وما أن تأتى قبيلة وتعمل على أن تصنع لها وطناً ، حتى تأتى فى أثرها قبيلة أخرى تحاول أن تقتلعها لتحظى هى بخيرات البلاد ، وهكذا كانت هذه المنطقة الواسعة من الأرض تموج بالحركة الدائمة ، والدول القائمة ضعيفة لا تستطيع لهذه الحركة دفعاً ، ومن هنا جاء التشتت والضعف والانقسام .

* * *

ومؤلف هذا الكتاب صديقى الدكتور عبد النعيم حسنين يملك من مؤهلات التخصص ما يمكنه من الكتابة فى هذا الموضوع : سلاجقة إيران والعراق . فهو أحد الثقات فى اللغة الفارسية وآدابها وفى تاريخ إيران ، وكل ما يتعلق بالثقافة والحضارة الإيرانية ، درسها فى مصر وإيران ، وتخصص فيها ، وهو يقوم منذ سنوات على تدريسها للطلاب فى جامعة عين شمس ، وألف فيها وترجم ، وها هو ذا اليوم يقدم لأول مرة فى المكتبة العربية هذا الكتاب القيم على صغر حجمه ، وقد اعتمد فيه على

مراجع مطبوعة وغير مطبوعة ، أكثرها باللغة الفارسية ، لا أعلم أنها استخدمت عندنا قبل اليوم فى كتابة تاريخ الدول الإسلامية فى العصور الوسطى باللغة العربية . ونرجو أن توفق (المكتبة التاريخية) إلى نشر كتاب آخر فى (سلاجقة الروم) بمثل هذا الحظ من الكفاية والتوفيق .

* * *

وبصدور هذا الكتاب السابع يكون قد مضى من حياة (المكتبة التاريخية) عام كامل ، ولن أجد احتفاءً بعيدها الأول خيراً من أن أحمد الله على ما أصبنا من توفيق وأن أقدم خالص الشكر لجميع من تفضل بالمساهمة فى إنجاحها : بالكتابة فيها أو بالتشجيع أو بالنصيحة أو بالنقد . وعلى الله قصد السبيل .

١٩٥٩/٨/٢ — أحمد عزت عبد الكريم

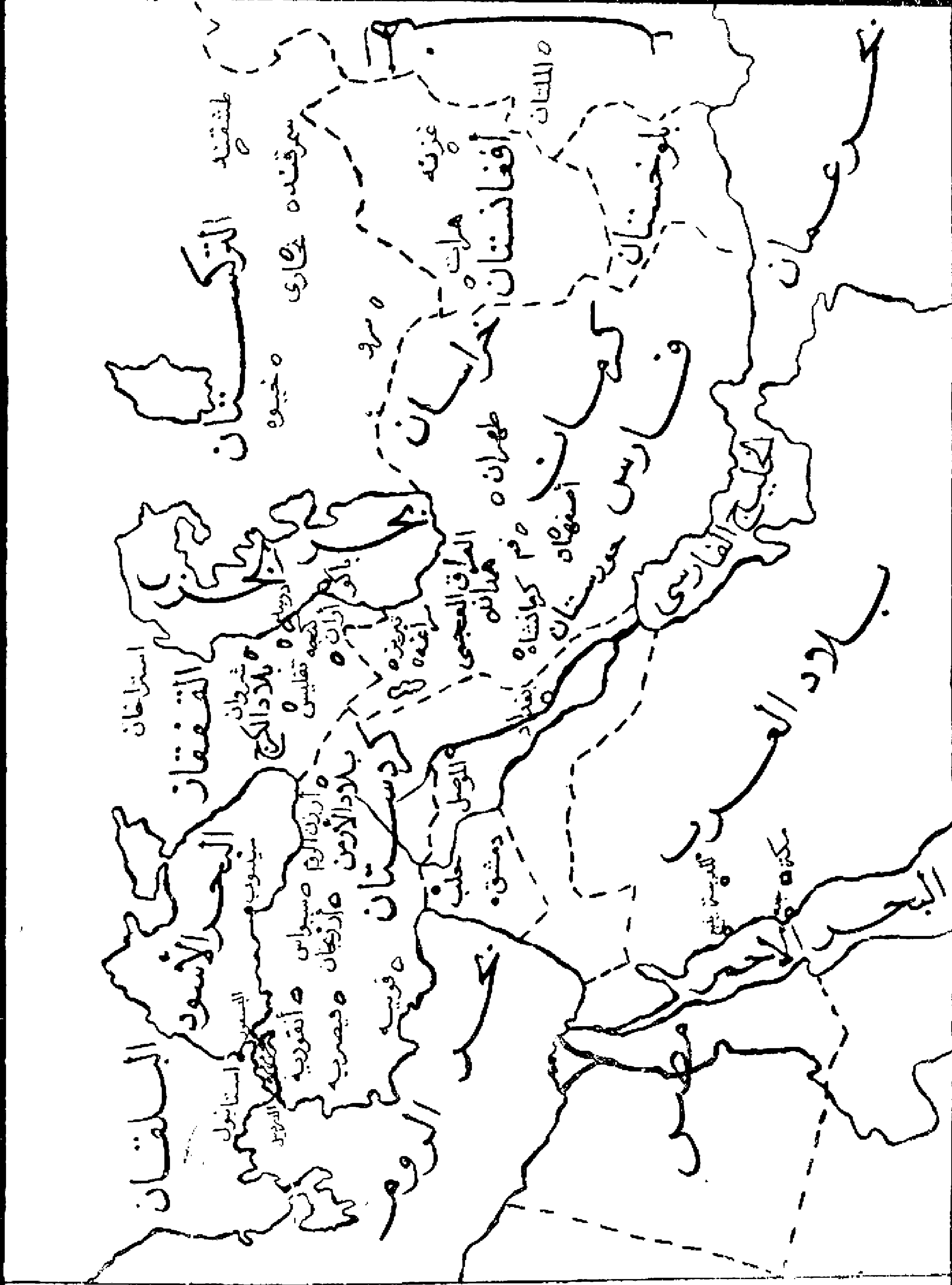

الشرق الأوسط
في عصر السلاجقة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعد دولة السلاجقة من أهم الدول التى ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامى ، ولعبت دوراً مهماً فى توجيه سير الأحداث فى كثير من بلاد الشرقين الأدنى والأوسط فى خلال مدة تزيد على قرنين من الزمان .

وقد كان السلاجقة — فى أصلهم — مجموعة من القبائل التركية التى دفعتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى كثرة التنقل بحثاً عن أسباب العيش الرغيد ، وانتجاعا لمواطن الكلأ ، إلى أن سكن هؤلاء السلاجقة فى إقليم ما وراء النهر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، ثم انتقلوا بعد مدة وجيزة إلى خراسان ، وأخذوا يجنحون إلى الاستقرار ، ويكونون الجيوش حتى تمكنوا من إقامة دولة فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، ولم تلبث دولتهم أن بسطت نفوذها على إيران والعراق ، وعلى أكثر أجزاء الشام وآسيا الصغرى .

وقد لعب أحفاد السلاجقة فى بلاد الشام دوراً مهماً فى الحروب الصليبية ، ونجحوا فى القضاء على الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين ، وفى تقوية المعسكر السنى الذى كان يتزعمه الخليفة العباسى فى بغداد .

ومهدت حملات السلاجقة فى آسية الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين — فيما بعد — لدحر الروم ، والقضاء على الدولة الرومانية الشرقية ، فكان لهذا كله أثر بعيد فى توجيه تاريخ كثير من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، وفى تكييف حضارتها ومستقبلها ، ما زال بعضه ملموساً إلى الوقت الحاضر .

وقد أثر العنصر القبلى فى مختلف مظاهر حياة السلاجقة بعد استقرارهم وتكوين دولتهم ، مما جعل للسلاجقة أثراً واضحاً فى مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية ، لا يقتصر على السياسة ونظم الحكم بل يمتد إلى العلوم والآداب والفنون ؛ وهذا كله يجعل تاريخ السلاجقة جديراً بالدراسة التى تكشف لنا عن جزء مهم من تراثنا الحضارى ، غاصت جذوره فى أعماق الزمن ، فلم تبلها العصور المتعاقبة ، والأجيال المتتابعة .

وقد حاولت — فى هذا الكتاب — أن أقدم للقارئ صورة لتاريخ السلاجقة فى إيران والعراق ، أى لدولة السلاجقة الرئيسية ، وأرجأت الحديث عن فروعها فى كرمان والشام وآسية الصغرى إلى كتاب آخر ؛ لأن حيز الكتاب يضيق عن

عرض هـذه الفروع عرضاً كافياً ، فقد ارتبط تاريخ سلاجقة الشام وآسية الصغرى — مثلا — بالحملات الصليبية فى مرحلة مهمة من مراحلها ، ولعب هؤلاء دوراً ينبغى توضيحه ، ودراسته دراسة خاصة مستقلة ، لا تفى بها فصول قصيرة مختصرة كان من الممكن ضمها إلى هذا الكتاب ؛ ولذلك خشيت أن يؤدى الاختصار الشديد فى عرض جوانب الموضوع إلى ضياع بعض معالمه البارزة . أو عدم ظهورها بوضوح ، فآثرت أن أقتصر — فى هذا الكتاب — على عرض تاريخ دولة السلاجقة الرئيسية فى إيران والعراق .

كما حاولت أن أبرز أهم الأحداث التى كانت ذات أثر واضح فى تاريخ السلاجقة ، وتاريخ الشعوب المجاورة لهم ، وأن أغفل الأحداث الثانوية ، وأن أجتهد فى التقليل من الأسماء قدر المستطاع؛ ولهذا فإننى لم أذكر أسماء كثير من القواد والوزراء خشية أن يؤدى ذكر هذه الأسماء مع ذكر الأحداث والمواقع الحربية والسنوات التى وقعت فيها فى حيز ضيق — كهذا الكتاب — إلى شىء من الإثقال ، أو إلى تغطية المعالم البارزة التى يهمنى إظهارها للقارئ .

وقد حرصت على إعطاء القارئ فكرة واضحة عن تاريخ السلاجقة ، وعلى أن تكون هذه الفكرة كافية للقارئ العادى ، وأساساً يستطيع أن يعتمد عليه الدارس فى القيام بدراسات أوسع ،

وأكثر تفصيلا معتمدا على المصادر التى ذكرتها فى آخر الـكتاب ، وأرجو أن يكون تنبيهى إلى أهمية الدور الذى لعبه السلاجقة فى تاريخ الشرق والعالم الإسلامى ، حافزاً للدارسين وتمهيداً للأبحاث المفصلة التى آمل أن تتم فى المستقبل القريب إن شاء الله .

فإن كنت قد وفقت فالفضل لله أولا وآخرا ، وإن كنت قد قصرت فى بعض النواحى ، فإننى أرحب بكل نقد نزيه يستهدف الحقيقة العلمية التى هى غاية الدارسين . والله الموفق للصواب .

الدقى فى { ١٢ جمادى الأولى ١٣٨٧ هـ
الموافق ٢٣ نوفمبر ١٩٥٨ م }

المؤلف

الفصـــل الأوّل

العالم الإسلامى قبيل ظهور السلاجقة

تمهيـد :

أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة منـذ أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وبدأت قوتهم تظهر على مسرح الأحداث ، منذ أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ثم لم يلبث طغرل أول سلاطينهم أن جلس على العرش فى نيسابور فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، واعترف الخليفة العباسى بقيام دولتهم فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) ، فاكتسبوا صفة شرعية ، وازدادت شوكتهم ، ولعبوا دوراً مهماً فى توجيه سير الأحداث ، فكانوا بذلك من أهم الدول التى ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامى .

وكان العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، تتنازعه قوات مختلفة ، وتتزعمه ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى القاهرة ، والخلافة الأموية فى قرطبة .

وكانت الخلافة العباسية ضعيفة واهنة ، فقد ازداد نفوذ

الأتراك فى الدولة العباسية ، حتى سلبوا سلطة الخلفاء ، وتدخلوا فى شئون الدولة ، وتحكموا فى تولية الخلفاء وعزلهم ، أو قتلهم أو سمل عيونهم ، كما تدخلت النساء فى السياسة ، فكثيراً ما كن يوجهن دفتها ، وكثرت تولية الوزراء وعزلهم ، وتولية العهد أكثر من واحد ، مما أشعل نيران المنافسة والفتنة بين أمراء البيت الواحد .

وقد ازدادت شوكة القواد من الأتراك منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، وتفاقم خطر الدول المستقلة ، فغلب نفوذ البويهيين فى فارس والرى وإصفهان وبلاد الجبل ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، وسيطر الإخشيديون على مصر والشام ، ثم خلفهم الفاطميون ، وظفر السامانيون بحكم خراسان ، ثم حل محلهم الغزنويون ؛ كما أعلن عبد الرحمن الثالث الأموى نفسه خليفة فى بلاد الأندلس إذ أيقن أن سلطة الخليفة العباسى لا تتعدى مدينة بغداد ، فضلا عن خضوعه لنفوذ النساء والخدم والأتراك .

ثم تطرق الضعف إلى الخلافة الفاطمية فى عصر المستنصر (٤٢٧ — ٥٨٧ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) حتى أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة .

وقد قامت دولة السلاجقة فى شرق إيران ، وسط هذه

الظروف جميعها ، وبين هذه المعسكرات المتباينة ، وحاولت أن تمثل دوراً رئيسياً ، مما جعلها تشتبك فى حروب متصلة ، وتكيف صلاتها بالمعسكرات المختلفة وفقاً لميولها وأهدافها ، فكان عهدها يغلى بالأحداث .

وأدت هذه الأحوال المضطربة إلى تقلبات فى الأوضاع السياسية ، وسقوط دول ودويلات ، وحلول أخرى محلها .

وكان للناحية الدينية فى ذلك الوقت — أثر فى تكييف الأحداث ، وتوجيه دفة سيرها ؛ فقد أوجدت الاختلافات المذهبية كثيراً من المنازعات ، كان بعضها الآخر باللسان ، وبعضها الآخر بالسنان ، كما أوجدت انعدام الثقة والطمأنينة فى قلوب الناس ، ورواج التصرف وارتفاع قدر علماء الصوفية .

وهذا كله يدعونا إلى التعريف بأهم المعسكرات والأحداث السياسية التى احتلت مكاناً فى العالم الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، وفى النصف الثانى منه بوجه خاص ، خصوصاً ما كان منها فى إيران والأقاليم المجاورة لها ، التى اتصل بها السلاجقة ، وكان لها أثر فى قيامهم ، وتوجيه سياستهم .

(ا) السامانيون :

ينتسب السامانيون إلى أسرة فارسية عريقة ، وقد بدأ نجمهم يرتفع فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فأصبحوا

ولاة على بلاد ما وراء النهر[١] ، ثم امتد نفوذهم فشمل بلاد طبرستان والرى وقزوين ؛ وكانت العلاقة بينهم وبين الخلفاء العباسيين تقوم على أساس المودة ، والمصالح المتبادلة ، فكان الخلفاء يعتمدون عليهم فى إقرار سلطانهم فى بلاد المشرق .

ثم بدأ الصراع بين السامانيين وبنى بويه وقامت الحروب بين الطرفين وتبادلا النصر والهزيمة[٢] ، كما شق بعض قواد السامانيين عصا الطاعة ، فأخذ الضعف يدب إلى البيت السامانى ، وطمع أصحاب الأطراف فيهم ، فأخذت دولتهم تسرع إلى النهاية منذ منتصف القرن الرابع الهجرى[٣] ، حتى طمع فيها جيرانها من الخانيين والغزنويين ، فتقدم إيلك خان المعروف ببغرا خان الترکی للاستيلاء على سمرقند ، وأصبحت مقاليد الأمور فى الدولة السامانية فى أيدى قائدين من كبار قواد هذه الدولة ، فاستبدا بالملك ، فاتخذ محمود الغزنوى من اضطراب حبل الأمور فى الدولة السامانية فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى ، واستقر ملكه بخراسان ، فأزال نفوذ السامانيين عنها ، ووقعت بلاد ما وراء النهر فى يد بغرا خان ؛ ثم لم يلبث بغرا خان هذا أن قصد بخارى ، وهكذا دالت دولة السامانيين ، وتوزعت ممتلكاتها بين الغزنويين

---

(١) إقبال : تاريخ إيران أز ظهور اسلام تاحمله مغول ، ص ١٢١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٣٣ هـ
(٣) إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

والخانيين[١] ، فاختفوا من فوق المسرح السياسى ، بينما كان معسكر السلاجقة يستعد للظهور فوق هذا المسرح فى خراسان وما وراء النهر .

* * *

(ب) الغزنويون :

كان الغزنويون فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين فى أوج قوتهم ، وكان يتزعمهم السلطان محمود الغزنوى الذى غزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ما وراء النهر[٢] ، وكال الضربات لبنى بويه ، حتى تمكن من الاستيلاء على إصفهان ؛ هذا فضلا عن إزالته الدولة السامانية من خراسان .

وقد أدت حروب محمود الغزنوى إلى نشر الإسلام فى البنجاب ، وتوسيع رقعة دولته ، وبسط نفوذه ، فاكتسب مكانة عظيمة غبطه عليها معاصروه ، وأصبح من أبطال الإسلام الذين أحرزوا لقب « الغازى »[٣] . إذ اصطبغت حملات محمود الغزنوى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٨٩ ه ؛ إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٣٠ — ١٣٥ .

(٢) Browne : Aliterary History of Persia, vol. I, p. 376.

(٣) حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٣٩٦

فى بلاد الهند بصبغة الجهاد الدينى ، فكان يرمى من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام فى تلك الحملات ، فضلا عن الغنائم الوفيرة التى كان يظفر بها .

واتسعت ممتلكاته حتى ضمت الهند الشمالية شرقاً والعراق العجمى غرباً وخراسان وطخارستان وقاعدتها بلخ وقسما مما وراء النهر شمالا ، وسجستان جنوباً .

والواقع أن ظهور الدولة الغزنوية كان نصرا للعنصر التركى على العنصر الإيرانى فى ميدان الزعامة فى العالم الإسلامى ، غير أن هذه الدولة لم تختلف كثيراً عن الدولة السامانية ، فقد كانت تستند إلى السيف ، فلما وهنت اليد التى كانت تحمل السيف ضعفت الدولة ، وتقوض كيانها ، وهذا ما حدث بعد موت محمود فى عام (٤٢١ هـ/١٠٣٠ م) ، إذ أخذت الأمصار الشرقية تنفصل تدريجيا ، واقتسم الخانيون والسلاجقة ممتلكات الغزنويين فى الشمال والغرب ، ثم تمكن الغوريون فى أفغانستان فى النهاية من تسديد الضربة القاضية إليهم ، فقضوا على دولتهم فى عام (٥٨٢ هـ/١١٨٦ م)[١] .

وكان معسكر الغزنويين قويا حينما بدأ السلاجقة يظهرون على مسرح التاريخ ، فقد كانت قوة محمود الغزنوى أعظم قوة فى

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥٥٩

العالم الإسلامى فى ذلك الوقت فلم يستطيعوا الوقوف فى وجهه ، ولم يحاولوا التفكير فى مناوأته ، فلما توفى ، عجز ابنه مسعود عن ملء الفراغ الذى تركه ، لأن الفتن لم تلبث أن أطلت برأسها فى الهند وخراسان ، فلم يستطع مسعود التفرغ للقضاء على السلاجقة ، فازدادت قوتهم وطمعوا فى أملاك الغزنويين ، وتمكنوا من الاستيلاء على معظم بلاد خراسان ، وهزموا « مسعود » هزيمة نكراء فى عام (٤٣١ هـ /١٠٣٩ م) كانت بعيدة الأثر فى نفسه ، فانسحب إلى بلاد الهند ، ولم يفكر الغزنويون فى استرداد ممتلكاتهم المغصوبة ، فاستقر نفوذ السلاجقة فى إيران .

* * *

(ج) البويهيون :

ظهر بنو بويه فى صورة قوة تستطيع أن تلعب دورا فى التاريخ منذ أوائل القرن الرابع الهجرى(١) ؛ ثم تمكن معز الدولة أحمد بن بويه من دخول بغداد فى عام (٣٣٤ هـ/٩٤٥) ، وبسط نفوذ البويهيين عليها .

وكان البويهيون يتعصبون للشيعة ، فلم يتورعوا عن التعدى على الخلفاء ، والانتقاص من حقوقهم ، حتى إنهم فكروا فى

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٧٨ – ٢٧٩

إزالة الخلافة العباسية ، وإقامة خلافة علوية مكانها ، فانتهجوا سياسة فى العراق ، كانت ذات أثر سيء فى هـذه البلاد ، فقد أدت إلى قيام الفتن الطائفية[١] وكثرة الثورات بين الجند .

ولم يقتصر نفوذ البويهيين على العراق بل امتد إلى بعض الجهات الأخرى التى كانت تابعة للعباسيين ، حتى شمل جميع أجزاء العراق وعمان وفارس والرى وهمذان وإصفهان .

وقد ذهبت هيبة الخلافة العباسية فى عهد البويهيين[٢] ، فلم يبق منها إلا اسمها ، فلم يكن للخليفة العباسى من الأمر شيء سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة .

غير أن نفوذ البويهيين أصيب بضعف شديد فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين فضعف السلاطين وتنازع الأمراء فيما بينهم وازداد نفوذ الجند من الأتراك فأخذوا يوجهون سير الأمور فى الدولة العباسية ، ويتدخلون فى تولية سلاطين بنى بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة فى ذلك كله لا يملك إلا تنفيذ رغباتهم[٣] .

فلما أخذ السلاجقة يثبتون دعائم دولتهم فى إيران فى النصف

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٤

(٢) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٩ هـ

الأول من القرن الخامس الهجرى كان معسكر البويهيين فى العراق وبعض أجزاء إيران مفككا متخاذلا ، تسوده الفتن والقلاقل .

وكانت هذه الحروب التى قامت بين الملك الرحيم وإخوته من أهم عوامل ضعف بنى بويه ، فإنه بدلا من أن يستعين الملك الرحيم بإخوته على دفع خطر السلاجقة عن بلاده ، قلم أظفاره بيده ، وهيأ لمنافسيه السلاجقة الأقوياء سبيل الاستيلاء على بغداد فى عام (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)[١]، وبذلك انهار معسكر البويهيين ، وسقطت دولتهم .

* * *

(د) الخلافة العباسية :

كانت الخلافة العباسية عند ظهور السلاجقة قد بلغت درجة كبيرة من الضعف ، والواقع أن الدولة العباسية أخذت فى الانحلال والتخاذل منذ عهد المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧هـ/٨٤٧ — ٨٦١ م) فأخذ نفوذ الأتراك فى الازدياد حتى سيطروا على المناصب المدنية والعسكرية ، وأمسكوا بزمام الأمور فى الدولة .

وكثرت البدع فى عصر العباسيين ، فظهرت فرق كثيرة كالإسماعيلية والزنادقة والمعتزلة فانقسم المسلمون شيعا وطوائف ،

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٩ — ١٠

كانت تناهض بعضها بعضاً[١] ، ويحاول بعضها القضاء على الدولة العباسية نفسها .

وهكذا ، لم يكن للخلفاء العباسيين قوة مادية ملحوظة حينما ظهر السلاجقة فى ما وراء النهر وخراسان ، وحاولوا تأسيس دولة لهم ، فلم يكن خلفاء العباسيين قادرين على القيام بأدوار سياسية مهمة فى ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا لا يزالون يتمتعون بقوة معنوية عظيمة[٢] ، تجعل الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقتهم على توليهم السلطة حتى تكتسب سلطتهم صفة شرعية ، لأن الخليفة العباسى كان أمير المؤمنين الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى جميع أرجاء العالم السنى .

وقد كان القائم بأمر الله هو الخليفة العباسى حينما قامت دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، فلما طلب السلاجقة منه الاعتراف بقيام دولتهم فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) لم يتردد فى إعلان اعترافه ، وفى دعوة أول سلاطينهم إلى زيارة بغداد .

* * *

(هـ) الخلافة الفاطمية :

لم تكن الخلافة الفاطمية أسعد حالا من الخلافة العباسية

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ١

(٢) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢

عند ظهور السلاجقة ، فقد كان الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الخليفة فى ذلك الوقت (٣٨٦ — ٤١١ هـ/٩٩٦ — ١٠٢٠ م) وكانت الأحوال مضطربة نظرا لما أصاب مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨ — ٤٠١ هـ)[١] من ناحية ، وسياسة الحاكم مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وهى السياسة التى اتسمت بالعنف وكثير من التذبذب والاضطراب من ناحية أخرى[٢] .

فلما أقام السلاجقة دولتهم فى عام ٤٢٩ هـ كان المستنصر حفيد الحاكم خليفة ، وكان إذ ذاك فى التاسعة من عمره ، فتدخلت أمه فى إدارة شئون الدولة[٣] ، وعظم نفوذ الوزراء ، وأخذ مركز الخلافة يتزعزع إلى حد كبير ، فبدأ نفوذ الفاطميين يتقلص ، فانكمشت رقعة دولتهم .

وهكذا كانت المعسكرات الموجودة فى أكثر أجزاء العالم الإسلامى ضعيفة عند ظهور السلاجقة مما ساعدهم على الظهور ويسر لهم إنشاء دولة قوية بسطت نفوذها على إيران والعراق وكثير من أجزاء بلاد الشام وآسية الصغرى ولعبت دوراً مهما فى التاريخ فى ذلك الوقت .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٦

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٥٥

الفصل الثانى

قيام دولة السلاجقة

تعريف بالسلاجقة :

كان السلاجقة مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم « الغز »[1] ؛ وقد بدأت هذه القبائل تهاجر من أقصى التركستان فى خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجرية[2] تحت ضغط ظروف قاهرة ؛ كغلبة قبائل أكثر قوة عليها ، وسيطرتها على أراضيها ، أو سوء الحالة الاقتصادية ، خصوصاً إذا ما كثر عدد أفراد القبائل ، فعجزت موارد الرزق عن كفايتهم ، أو حدث قحط جعل هذه الأماكن لا تصلح لاستمرار الحياة فيها ؛ وقد يممت القبائل التركية المهاجرة وجهها شطر الغرب ، وحاولت الاستقرار فى إقليمى ما وراء النهر وخراسان .

وأخذ التاريخ يردد اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع

---

(١) كانت هذه القبائل تسمى « الأوغوز » ثم خففت هذه التسمية فصارت « الغز »

(٢) بهار : سبك شناسى ، حواشى ص ٢٤٥

سلاجقة إيران والعراق

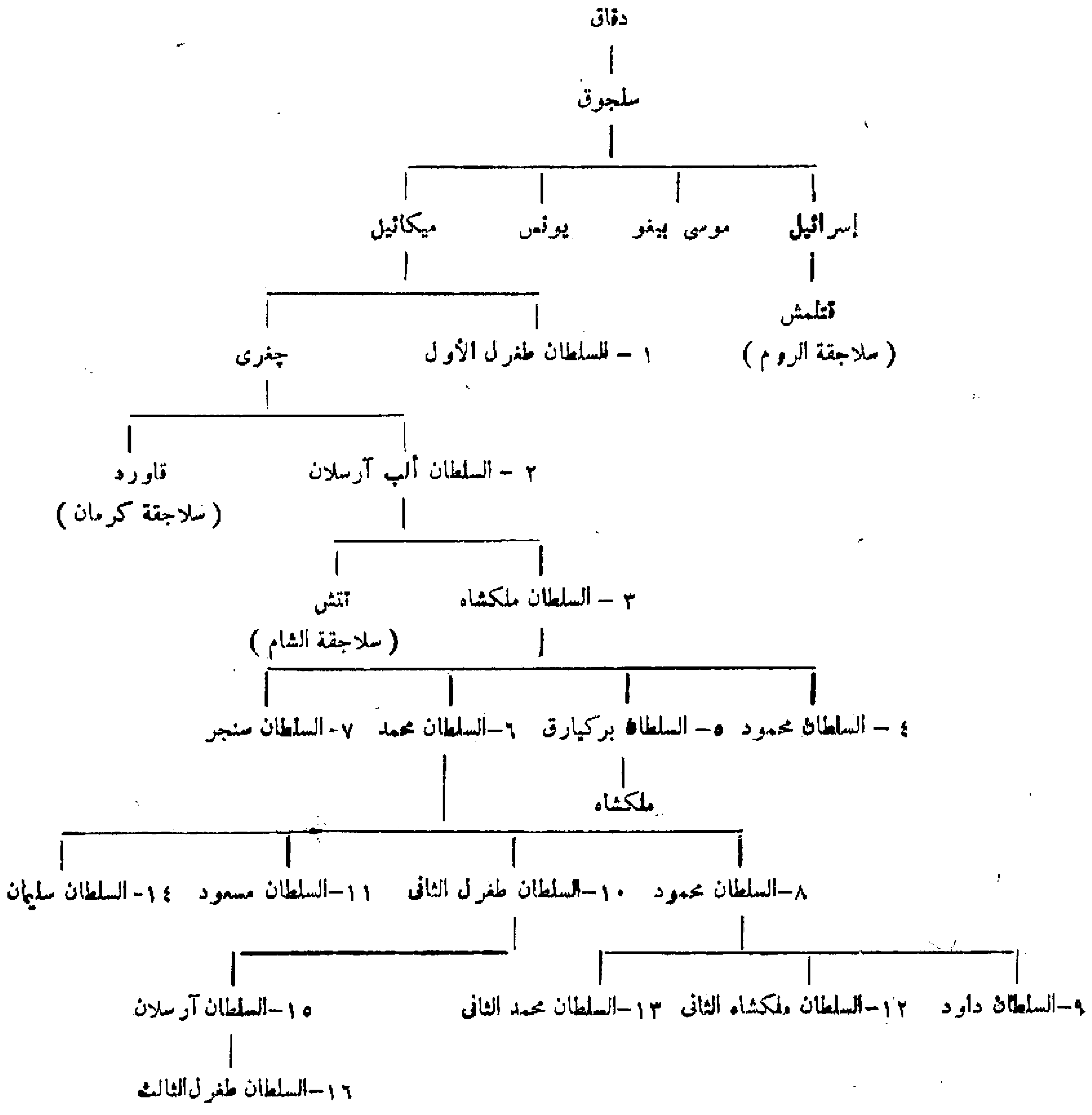

الهجرى (العاشر الميلادى) ، وكانت طوائفهم حينذاك تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم ، فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (أو بحر الخزر) ، وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون ، وكانت هذه المساكن تقع بين بلاد ما وراء النهر ، ومنازل طائفة من الأتراك المسلمين ، تسمى « القرلق » .

وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم « السلاجقة » نسبة إلى رئيسها سلجوق بن دقاق[1] ، وكان لا يعرف لها اسم خاص قبل تولى سلجوق هذا رئاستها ، ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ، ووحدها تحت زعامته ، ثم قادها إلى تلك المنازل فى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م)[2] ، فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده .

وكانت منازل السلاجقة — فى ذلك الوقت — تجاور ممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين ، وهم من الدول الإسلامية السنية ، فأدى جوار السلاجقة لهم إلى اعتناقهم الإسلام ، وتعصبهم للمذهب السنى الذى يرعاه الخليفة العباسى فى بغداد ، ويسر لهم اعتناقهم الإسلام فرصة التقرب من حكام

---

(١) « دقاق » أو « تقاق » كلمة تركية معناها « القوس الجديد » ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(٢) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٤ .

المسلمين المجاورين لهم ، والتدخل — أحياناً — فى المنازعات التى تثور بينهم .

وقد استفاد زعيمهم سلجوق من مساعدته للسامانيين فأذنوا له بالمرور فى بلادهم ، والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب من شاطئ نهر سيحون ، واتخاذ مدينة « جند » قاعدة له .

ثم أخذ السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى يجنحون إلى الاستقرار ، بالقرب من موارد المياه ، حيث توجد الأراضى الخصبة ، وتكثر المراعى اللازمة لدوابهم ، فيطيب العيش لهم ويحلو.

وبدأ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) والسلاجقة يستقرون فى بلاد ما وراء النهر بعد أن تمت هجرتهم من إقليم التركستان(١) ، وكانت الدولة السامانية قد انهارت فى عام ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م) ، فتوزعت أراضيها بين الخانيين والغزنويين ، وكانت منازل السلاجقة تتركز فى الشتاء حول « نور » بالقرب من بخارى وتتجمع فى الصيف حول « سغد » بالقرب من سمرقند(٢) .

وكان السلاجقة عنصراً جديداً فى تلك البلاد يختلف عن عنصر السامانيين(٣) فى أنهم لم يألفوا حياة المدن

---

(١) حمدالله : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٤ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٣) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤ .

والاستقرار من قبل ، بل عاشوا حياة تغلب عليها سمات البداوة من ميل إلى التنقل والارتحال طلباً للرزق ، وانتجاعاً لمواطن الكلأ ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم مما أثر فى دولتهم ، وفى حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير ، فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتماداً كبيراً ، وكونوا من أفرادها جيوشهم(١) ، وشجعوا القبائل السلجوقية على الوفود إلى إيران ، وغيرها من الأقطار الإسلامية .

وكان المظهر القبلى يغلب على سلاطين السلاجقة الأولين ، فكانوا غير مثقفين مما جعلهم فى حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين لاستعمالهم فى المهام المختلفة(٢) ، فبرزت طبقة الموظفين ، وازداد نفوذ بعض أفرادها تبعاً لأهمية مناصبهم ، أو لصلتهم بالسلطان السلجوقى ؛ وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب ، وقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دوراً بارزاً موجهاً فى كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية ، بل إنهم استطاعوا أحياناً أن يسيطروا على سلاطين السلاجقة ، ويوجهوهم وفق إرادتهم .

كما أثرت غلبة النظام القبلى على السلاجقة فى سلاطينهم ،

---

(١) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٦

(٢) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان العظيم (بالروسية) ، ص ١٣

فجملتهم لا يهتمون بمظاهر الملك ، فألغوا ديوان البريد[١] ، ولم يحاولوا الاستعانة بالحكماء والعلماء كثيراً ، بل غلبت عليهم الصبغة العسكرية ؛ وساعد على ذلك وجود كثير من القبائل السلجوقية فى المدن الرئيسية فى إيران والعراق ، وقد أدت قوة النظام القبلى إلى إثارة الفتن والقلاقل فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة ، فقد كانت القبائل تشعل نيران الفتن إذا حرم السلاطين أفرادها من المرتبات التى يؤدونها لهم ، فتزيد الحالة فى الدولة سوءاً واضطراباً[٢] .

غير أن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمبانى الفخمة ، والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم وتسد ما فى أنفسهم من فراغ ، وقد أثر هذا فى الفنون فراجت رواجاً ملحوظاً فى عصرهم ، فارتفعت فنون النقش والتصوير والصنعة والمهار ، فكان السلاجقة عامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها[٣] ، وكان سلاطينهم يحمون الفنون ، ويشجعون رجالها[٤] .

---

(١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤

(٢) برتلس : نظامى ، ص ١٤

(٣) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران (ترجمة فريار) ، ص ١٤٢

(٤) M. S. Dimand : A Handbook of Mohammadan Art, P. 173

كما أثرت بداوة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام — بعد اعتناقهم له — وميلهم المفرط إلى أهل السنة والجماعة — بعد اتباعهم المذهب السنى — ؛ مما أثر فى تصرفات السلاجقة فجعلهم يظهرون الولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، ويحترمون أئمة الدين احتراماً شديداً ، ويميلون إلى المتصوفة ، ويجلون شيوخهم[1] ، فانتشر التصوف فى عصرهم ، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام ، فارتفع شأن رجالها ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس .

وهكذا أثرت غلبة العنصر السلجوقى ، وبداوة السلاجقة ، وغلبة النظام القبلى عليهم فى كثير من مظاهر الحياة ، وفى مختلف نواحى الحضارة فى دولتهم وشكلت حاضرهم ومستقبلهم ، وخلفت آثاراً واضحة فى حياة الناس فى إيران والعراق فى عصرهم .

* * *

ظهور قوة السلاجقة :

اطمأن السلاجقة — فى أوائل القرن الخامس الهجرى — إلى حياتهم فى بلاد ما وراء النهر ، وسعدت نفوسهم بهذه الحياة ، وما اتسمت به من استقرار تتخلله رحلتا الشتاء والصيف ، فأخذوا يستعدون للقيام بدور أكثر أهمية ، واستطاعوا فى خلال سنوات

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ — ٩٩ .

قليلة تجهيز أنفسهم بالمال والعتاد ، وإعداد جيش وافر العدد ، قوى العدد ؛ حتى صاروا قوة يخشى بأسها ، ويرهب جانبها[١] .

وساعدهم إسلامهم ، وحرصهم على التمسك بأهداب الدين ، والتقرب من أئمته ، على الظفر بتأييد هؤلاء الأئمة[٢] ، فأدى هذا كله إلى غيرة الخانيين فى ما وراء النهر منهم وحقدهم عليهم ؛ فحاولوا الإيقاع بهم ، ورأوا فى السلطان محمود الغزنوى المنقذ الوحيد الذى يستطيع أن يخلصهم من شرهم ، ويقضى عليهم قضاء مبرماً ، فاستعانوا به وأخذوا يخوفونه من كثرة عدد السلاجقة ، وشدة بأسهم ، وخطورة وجودهم وراء ظهره[٣] .

وكان محمود الغزنوى حينذاك قائداً مظفراً ، يغزو بلاد الهند بين الحين والحين ، وينشر الإسلام فى ربوعها ، ويوطد حكم المسلمين فيها ، ويحظى بتأييد الخليفة العباسى — كما مر — فانتابته المخاوف من وجود السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر ، وخشى أن يفكروا فى تكوين دولة ، فتصير هذه الدولة شوكة فى ظهره ، تشغله عن مواصلة الجهاد ، لرفع راية الإسلام خفاقة فوق ربوع الهند .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٦ — ٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ

(٢) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٧ — ٨٨

وكان السلاجقة قد أخذوا يغيرون على المناطق المجاورة لهم ، ويحاولون توسيع ممتلكاتهم ، فكان طبيعياً أن يدرك محمود الغزنوى — بتجاربه الخاصة — كيف تتجمع القبائل ، ثم تكون الجيوش ، ثم تقيم الدول ؛ فاستمع إلى نصائح الخانيين ، وتقبلها بقبول حسن ؛ وكان محمود حينذاك قد ارتبط مع الخانيين برباط الصداقة والمصاهرة فتحالف معهم ، وأخذ يفكر فى أنجع الوسائل للقضاء على قوة السلاجقة ، والتخلص من شرهم ، ومزاحمتهم للخانيين فى بلاد ما وراء النهر .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت صفحة جديدة فى تاريخ السلاجقة ، فظهروا على مسرح التاريخ فى صورة واضحة قوية ، ثم لم يلبثوا أن انتقلوا إلى إقليم خراسان ، وبدت فى الأفق إرهاصات ميلاد دولتهم الجديدة الفتية ، ففكر محمود الغزنوى فى التوجه بنفسه لقتالهم واستئصال شأفتهم[١] ، فظهرت قوتهم على حقيقتها ، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل كفاحهم .

* * *

---

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٧٠ — ٧١ .

النزاع بين السلاجقة والغزنويين :

كان محمود الغزنوى بالقرب من نهر جيحون فى عام ٤١٥هـ[١] (١٠٢٤ م) حينما اشتكى الخانيون له من وجود السلاجقة ، وحذروه من خطرهم ، فأخذ يستطلع أنباءهم ، فعلم أنهم قوة كبيرة يقودها إسرائيل بن سلجوق ، ورأى أن خير وسيلة لاتقاء خطرهم أن يستعين بالدهاء والحيلة ، فأرسل إلى قائدهم يعرض عليه رغبته فى كسب ود السلاجقة وعقد ميثاق معهم يسجل الود والصداقة بين الطرفين ، لأن المسلمين ينبغى أن يتعاونوا فيما بينهم ، وألا يكون بأسهم بينهم شديداً ، ثم عرض عليه أن يتفقا على اللقاء بالقرب من جيحون[٢] .

ولكن محمود الغزنوى كان يدبر فى نفسه أمرا هو القبض على إسرائل زعيم السلاجقة ، ومن يجيء معه من الرؤساء والقواد ، وقد نجحت خطته ، فرحب إسرائيل بعروض الغزنوى وتحرك للالتقاء به ، وتمت المؤامرة فقبض رجال محمود الغزنوى على إسرائيل ووجوه قومه فى أثناء عودتهم إلى ديارهم ،

---

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٦٦

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٨ — ٩٠

النزاع بين السلاجقة والغزنويين :

كان محمود الغزنوى بالقرب من نهر جيحون فى عام ٤١٥هـ[١] (١٠٢٤ م) حينما اشتكى الخانيون له من وجود السلاجقة ، وحذروه من خطرهم ، فأخذ يستطلع أنباءهم ، فعلم أنهم قوة كبيرة يقودها إسرائيل بن سلجوق ، ورأى أن خير وسيلة لاتقاء خطرهم أن يستعين بالدهاء والحيلة ، فأرسل إلى قائدهم يعرض عليه رغبته فى كسب ود السلاجقة وعقد ميثاق معهم يسجل الود والصداقة بين الطرفين ، لأن المسلمين ينبغى أن يتعاونوا فيما بينهم ، وألا يكون بأسهم بينهم شديداً ، ثم عرض عليه أن يتفقا على اللقاء بالقرب من جيحون[٢] .

ولكن محمود الغزنوى كان يدبر فى نفسه أمرا هو القبض على إسرائل زعيم السلاجقة ، ومن يجىء معه من الرؤساء والقواد ، وقد نجحت خطته ، فرحب إسرائيل بعروض الغزنوى وتحرك للالتقاء به ، وتمت المؤامرة فقبض رجال محمود الغزنوى على إسرائيل ووجوه قومه فى أثناء عودتهم إلى ديارهم ،

---

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٦٦

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٨ — ٩٠

ثم ألقى بهم فى غياهب السجون ، ومات إسرائيل فى إحدى قلاع الهند بعيداً عن أهله وعشيرته (٤٢٢ هـ — ١٠٣٠ م) .

وقد أغضب هذا التصرف الغادر السلاجقة أيما إغضاب فأحفظهم ، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل ، فاختاروا أخاه ميكائيل لقيادتهم ، ففكر فى الانتقال بهم إلى إقليم خراسان ، ورسم خطة محكمة ، تهدف — أولاً — إلى تثبيت أقدام السلاجقة فى هذا الإقليم ، ثم تسعى — ثانياً — إلى الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم ، وترمى — أخيراً — إلى تكوين دولة قوية تخلف الغزنويين فى إقليمى خراسان وما وراء النهر ، وما تستطيع إليه سبيلاً من الأجزاء الأخرى من إيران .

وبدأ ميكائيل فى تنفيذ الشطر الأول من خطته ، فرأى أن الاشتباك فى حروب مع محمود الغزنوى أمر قد يعصف بالبقية الباقية من قوة السلاجقة نظراً لقوة محمود ومكانته فى العالم الإسلامى ، وإجلال الخلفاء العباسيين له ، فآثر استعمال الحيلة والدهاء ؛ فأرسل إلى السلطان محمود الغزنوى (١) يلتمس منه الإذن للسلاجقة بالمرور من الأراضى التى تخضع لسلطانه ، والرحيل إلى إقليم خراسان ، والإقامة فى المنطقة الواقعة بين مدينتى « نسا »

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٦٧

و « باورد » . وعلم والى طوس بنية السلاجقة ، فأرسل إلى إلى السلطان محمود يحذره من السماح لهم بالوصول إلى خراسان ، لأن إقامتهم فى هـذا الإقليم خطر يهدد دولته بأوخم العواقب ، غير أن « السلطان محمود » لم يأبه بهذا التحذير ، اعتقاداً منه بأن قوة السلاجقة قد ضعفت بعد اعتقال إسرائيل ، وعدد من كبار رجالهم ، فسمح لهم بالرحيل إلى خراسان ، فعبروا جيحون واستقروا فى هذا الإقليم(١) .

وكان انتقال السلاجقة إلى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاحهم ، كما كان ذا أثر قوى موجـه لمستقبل إيران وما جاورها ، فقد أخذوا يدعمون قواتهم ، وينتشرون فى الأرجاء المجاورة لهم ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية ، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر .

وأحس أهل « نسا » و « باورد » بخطرهم ، فاشتـكوا إلى السلطان محمود فى أواخر عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) فأمر والى طوس بإجلائهم ، فهاجم معسكراتهم ، غير أنهم هبوا لمقاومته ، فدارت بين الطرفين معارك حامية انتصر فيها السلاجقه انتصاراً باهراً ولـكن حضور الغزنوى حوّل نصرهم إلى هزيمة ساحقة(٢) .

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٥ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٧٠ – ٧١

وكان لميكائيل[١] ابنان هما : جغرى بك أبو سليمان داود ، وطغرل بك أبو طالب محمد ؛ وكانا فارسين مقدامين ، يتمتعان بنفوذ كبير بين الجند وأفراد القبائل ، فاستطاعا جمع السلاجقة بعد تفرقهم ، وكونا جيشاً قوياً ، وانتهزا فرصة وفاة السلطان محمود فى عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فحاولا الأخذ بالثأر ، وتوسيع رقعة الأراضى التى يحتلها السلاجقة ، وأخذا ينشران نفوذهما على الجهات المجاورة حتى شمل نفوذهما كثيراً من أنحاء خراسان .

فلما اطمأنا إلى قوة السلاجقة ، طلبا من والى نيسابور أن يأذن لقومهما بالإقامة بالقرب منها ، ورفض الوالى واستعان بالسلطان مسعود بن محمود ، فأسرع إلى نيسابور فى عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) لدفع هذا الخطر السلجوقى ، وانهزم السلاجقة أول الأمر ، بالقرب من « نسا » ولكنهم انتصروا فى النهاية انتصاراً باهراً ، فاضطر مسعود إلى عقد صلح معهم ، وترك مقتضاه المنطقة لهم ، ثم رحل إلى الهند لتفقد شئونها[٢] .

وقد استفاد السلاجقة من هذا النصر كثيراً ، فدعموا نفوذهم

---

(١) يفهم من كلام ابن الأثير أن ميكائيل توفى قبل وفاة محمود الغزنوى . ارجع إلى الكامل فى حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

(٢) ارجع فى تفصيل هذا الأمر إلى تاريخ بيهقى ، ص ٥٧١ — ٥٩١

فى خراسان ، ولم يبق أمامهم إلا أن يعلنوا قيام دولتهم فى ربوع هذه البلاد .

* * *

إعلان قيام دولة السلاجقة :

ضاق مسعود بالمكانة الكبيرة التى نالها السلاجقة وبتوطيد نفوذهم فى خراسان فحاول إجلاءهم عنها ، فهاجم السلاجقة بالقرب من مدينة سرخس فى آخر شعبان من عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)[١] ، حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس ، انتهت بانتصار السلاجقة انتصاراً باهراً ، فلم يجرؤ أحد — فى هذه المنطقة — على الوقوف فى وجههم مرة أخرى ، وأصبحت قوتهم أعظم قوة فى خراسان .

ثم رأى السلاجقة أن الوقت قد صار مناسباً لإعلان قيام دولتهم ، وجنى ثمار انتصاراتهم ، فوحدوا قيادتهم فى يد طغرل بك الذى أسرع بالتوجه إلى نيسابور واحتلالها ، ثم جلس على عرش مسعود فيها[٢] فى ذى القعدة من العام نفسه ، وأعلن قيام دولة السلاجقة ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه ، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة .

---

(٢) بيهق : تاريخ بيهق ، ص ٦٥٩ وما بعدها .
(١) المرجع السابق ، ص ٦٧٣ وما بعدها .

والواقع أن عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ينبغى أن يعد بداية لدولة السلاجقة ، لأن « طغرل » باشر مهامه كسلطان فعلى لهم منذ ذلك التاريخ ؛ حقيقة إن الخليفة العباسى لم يعترف بقيام دولة السلاجقة إلا فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) حينما طلبوا هم منه أن يعترف بدولتهم ، وبطغرل سلطانا عليهم ، إلا أن اعتراف الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، كان يعد من الأمور الشكلية ، لإعطاء الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس .

وكان قيام دولة السلاجقة حدثا جديداً فى تاريخ إيران والعالم الإسلامى ، لأنهم ظهروا على مسرح التاريخ فى صورة دولة قوية سرعان ما لعبت دوراً رئيسيا فى توجيه سير الأحداث فى العالم الإسلامى ، وفى بلاد جيرانها من غير المسلمين ، ولم تلبث أن سيطرت على جانب كبير من العالم الإسلامى فى عصرها ، وعلى كثير من ممتلكات دولة الروم (البيزنطية) فى آسية الصغرى والمناطق المجاورة لإيران ، وهو دور جدير بالدراسة، والتعريف به .

ولم يمر إعلان قيام دولة السلاجقة دون معارضة أو مقاومة ، فقد جن جنون السلطان مسعود الغزنوى حينما علم باعتلاء طغرل عرشه فى نيسابور وتلقبه بالسلطان « طغرل الأول » ، فعزم على التوجه بنفسه إلى خراسان لتأديب السلاجقة ، ولكن جهوده

باءت بالفشل[1] فى النهاية . وكان آخر اشتباك بينه وبين السلاجقة عند « دندانقان » فى عام ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) وقد هزم مسعود فيه هزيمة نكراء ، انقلب بعدها إلى غزنة مدحورا ، وغنم السلاجقة غنائم وفيرة ؛ ورجع طغرل إلى نيسابور عزيزاً منصوراً[2] .

وكانت موقعة « دندانقان » ذات أثر عظيم موجه فى تاريخ كل من السلاجقة والغزنويين ، فلم يفكر الغزنويون بعدها فى الهجوم على السلاجقة أو مناوأتهم ، ولم يحاول أحد من حكام الأقاليم فى ذلك الوقت إجلاءهم ؛ فقوى أمرهم قوة عجيبة ، فقد اجتمع حولهم جند كثيرون من جميع أطراف خراسان ، وقامت دولتهم ، وقويت أركانها ، وخافها جيرانها ، ففكر المسلمون فى إيران والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية فى الانضمام تحت لوائها ، وحرصوا على إظهار الولاء لها ، وظفرت برضا الخليفة العباسى عنها ، وانحسر نفوذ الدولة الغزنوية عن إيران وما وراء النهر ، ودالت دولتهم فى هـذه النواحى نهائيا ، فداعب طغرل السلجوقى خيال تكوين دولة عظمى تسيطر على جميع أنحاء العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، وأخذ يعمل على تحقيق هـذا الخيال ، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل كفاح السلاجقة .

---

(١) ارجع فى تفصيل هذه الأحداث إلى تاريخ بيهق ، ص ٦٩٥ وما بعدها ، وابن الأثير : الكامل ، فى حوادث سنة ٤٣٠ هـ

(٢) تاريخ بيهق ، ص ٧٤٣ — ٧٦١ ، الراوندى : راحة الصدور ص ١٠٠ — ١٠١ .

الفصل الثالث

سيطرة السلاجقة على إيران والعراق

سيطرة السلاجقة على إيران :

شرع السلاجقة بعد نصرهم المبين فى معركة « دندانقان » فى إرساء قواعد دولتهم وتدعيمها فى إيران ، فأخذوا يوحدون صفوفهم ، ويسدون الثغرات التى قد تثير المنازعات بينهم ، فاجتمع طغرل لهذا الغرض بأخيه چغرى بك ، وعمه موسى بيغو[1] ، وأبناء عمه وغيرهم من رجالات السلاجقة ، وتدارسوا خطوات السلاجقة التى ينبغى أن تتلو قيام دولتهم ، ثم تعاهد الجميع على أن يظلوا متحدين متماسكين ، وألا يدعوا للتفرق والتنازع سبيلاً إلى قلوبهم حتى يظلوا أقوياء مظفرين[2] . ثم أكدوا اتفاقهم على تعيين طغرل الأول قائداً أعلى لجيوشهم ،

---

(١) كان لكل واحد من ولاة السلاجقة الأول اسم قبلى واسم إسلامى ، فطغرل هو الاسم القبلى أما الاسم الاسلامى فمحمد ، وجغرى الاسم القبلى يقابله الاسم الإسلامى « داود » « وبيغو » الاسم القبلى يقابله الاسم الإسلامى « موسى » .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢

وسلطاناً على دولتهم ، وتعاهدوا على أن يدينوا له بالولاء دائماً .

ولم يكن طغرل الابن الأكبر لميكائيل ، فقد كان أخوه جغرى يكبره سناً[1] ، ولكن طغرل كان يتمتع بشخصية قوية وذكاء حاد ، وشجاعة فائقة ، وتديّن ملحوظ ، فأدت هذه الصفات جميعها إلى التفاف الجند والقبائل حوله ، وإسلامهم القياد له .

وكان طغرل خير من يحمل الأمانة ، فصمم على تحقيق أهداف السلاجقة التي ترمى إلى إنشاء دولة قوية تسع العالم الإسلامى كله ، لو استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

ورأى طغرل أن إرساء قواعد الدولة يحتاج إلى جمع الكلمة ، وتكتيل القوى ، فاستعان بأفراد أسرته فى تحقيق برنامجه الضخم ، فعين كل واحد منهم والياً على ولاية من الولايات ، وسيّره إليها ، وسمح له بأن يفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها ، ويضم ما يفتحه إلى منطقة نفوذه دون منازع .

وكان السلاجقة جميعاً يخضعون لرئاسة طغرل الذى قرر أن يتجه بنفسه لفتح العراق والولايات القريبة منه ، وأن يتخذ مدينة « الرى » عاصمة له .

وهكذا رتب السلاجقة أمورهم ، وحددوا أهدافهم ، ولم يبق

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤

أمامهم إلا أن يعطوا دولتهم الصفة الرسمية ، ويصبغوها بالصبغة الشرعية ، فيحصلوا على موافقة الخليفة العباسى على قيامها ، واعترافه بسيطرتها على الأقاليم التى تحت يدها ، والمناطق التى قد تسيطر عليها فى المستقبل ، فكتبوا فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠م) رسالة إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، أظهروا فيها ولاءهم له ، وحبهم للجهاد فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، ثم بينوا له ما فعله السلطان محمود الغزنوى بعمهم إسرائيل بن سلجوق ، وكيف غدر به ، وسجنه فى قلعة «كالنجر» بالهند حتى أدركته الوفاة ، كما سجن كثيراً من أقاربهم ورجالاتهم ، وشرحوا للخليفة حالة المسلمين فى عهد مسعود بن محمود ، وأظهروا سوءها ، نظراً لانشغاله باللهو والشراب ، وإهماله أمر الرعية ، مما جعل عظماء خراسان يختارون السلاجقة لحماية المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، ثم ذكروا مهاجمة مسعود لهم ، وما حدث من حروب ، أظفرهم الله عليه — أكثر من مرة — فيها حتى تمت الغلبة لهم ، وطلبوا فى نهاية الرسالة أن يعترف الخليفة بقيام دولتهم ، وبطغرل سلطاناً عليهم ، حتى تكون ولايتهم شرعية ، على أساس من الدين ، وأمر من أمير المؤمنين[١] .

ثم انصرف كل وال منهم إلى المنطقة التى وضعت تحت

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ — ١٠٤

نفوذه ، وكان يعد ملكا عليها ، وكانت له الحرية المطلقة فى حكمها وفى فتح الأقاليم المجاورة لها ، دون أن يتعدى على غيره من أفراد أسرته ، وقد حاول كل منهم أن يحسن سيره حتى ينضم الناس إليه ، ويساعده العلماء ورجال الدين .

وبعد أن اطمأن طغرل بسير أفراد أسرته للاستيلاء على أجزاء إيران المختلفة ، بدأ هو فى تنفيذ ما بقى من خطته لإتمام سيطرة السلاجقة على إيران والعراق ، وكان عليه أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ الديالمة فى كل من إيران والعراق حتى تتم السيطرة لقومه ، فقام — من أجل ذلك — بحروب كثيرة ، متعددة الميادين ، وساعدته الحالة فى الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت — كما مر — فانتصر فى حروبه جميعها ، فأدرك غايته ، وأصاب أهدافه ، واستعان فى جميع أعماله بألب آرسلان ابن أخيه چغرى ، فعد هذا بمثابة تعيينه وليا لعهده[1] .

وقد بدأ طغرل تنفيذ خطته فى عام ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فولّى وجهه شطر جرجان وطبرستان للقضاء على حكم آنوشيروان الزيارى الذى كان يسيطر على هذين الإقليمين ، فلما علم بتوجه طغرل إليه ، وأيقن أنه لا طاقة له به ، أعلن خضوعه له ، وتعهده بإطاعته ، وأداء ضريبة سنوية له ، فضم طغرل هذه المنطقة

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

إلى حوزته(١) ، ثم لم يلبث أن عين عليها والياً من قبله ، فكان هذا إيذاناً بسقوط الدولة الزيارية من إيران(٢) .

ثم توجه طغرل فى عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) لفتح خوارزم وتمكن من ضمها إلى ممتلكات السلاجقة هى وما جاورها ، ثم رحل بعد ذلك إلى الرى ، ودخلها فى العام نفسه ، واتخذها عاصمة له ، ومقراً لحكومته(٣) .

ووصلت رسالة السلاجقة ، إلى بغداد ، فسر بها الخليفة العباسى القائم بأمر الله أيما سرور ، وتقبلها بقبول حسن ، ورد عليها رداً رقيقا ، وأرسل رسولا من قبله إلى طغرل ، فتوجه إلى الرى ، يصحبه مبعوث السلاجقة ، حيث دعا المبعوث العباسى السلطان طغرل لزيارة بغداد ، غير أنه أرجأ زيارته إلى أن يفرغ من فتح الأقاليم الغربية والجنوبية من إيران بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة على حدود دولته الشرقية ، فأقام رسول الخليفة ثلاث سنوات فى الرى ، ثم عاد إلى بغداد بعد أن أكد له طغرل عزمه على زيارة بغداد فى الوقت المناسب(٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٣ هـ .

(٢) ينتسب إلى وشمكير الزيارى أخى مرداويج وكانت الدولة الزيارية تسيطر على أجزاء كثيرة من إيران من أهمها جرجان وطبرستان وجيلان وقد حكمت من ٣١٦ إلى ٤٣٣ هـ (٩٢٨ - ١٠٤١ م)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ

(٤) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٥

ثم اشتغل طغرل بفتح الأقاليم الغربية ، وتمكن من بسط نفوذه على قزوين وأبهر وزنجان وهمذان ، وإقليم آذربيجان ، فخضع له بذلك أمراء الديلم ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان(١) ، وأخذ يتفقد الأجزاء التي تحت أيدى السلاجقة حتى يطمئن إلى رسوخ قواعد دولتهم فى إيران .

وأرسل — أخاه من أمه — إبراهيم إينال إلى همذان والأجزاء الغربية لدعم نفوذ السلاجقة فيها ، فتوجه فى عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥ م) من كرمان إلى همذان للقيام بهذه المهمة(٢)، ولكن الأحوال ظلت غير مستقرة فى الأجزاء الوسطى والغربية من إيران ، فعاود طغرل الكرة بنفسه فى عام ٤٤١ هـ (١٠٤٩) ؛ فتوجه إلى هذه الجهات ، وأحس بتمرد أخيه إبراهيم إينال ، فرأى أن يبدأ بهمذان ، فأرسل إلى أخيه ، يطلب منه تسليم القلاع التى تحت يده ، فلما رفض حاربه طغرل ، ولكنه لم يصمد طويلا ، فلم يلبث أن استسلم لأخيه السلطان ، الذى عفا عنه ، ولم يعاقبه على تمرده .

وأخذ طغرل بعد ذلك يتفقد الأقاليم الغربية من إيران ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٣٧ هـ .

حتى ثبت سيطرة السلاجقة عليها ، وقبل حاكم ديار بكر ذكر اسمه فى الخطبة[١] .

ثم توجه فى أوائل عام ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) لفتح إصفهان والأجزاء الجنوبية من إيران ، وكانت إصفهان منيعة فمكث على حصارها عاما ، أرسل فى خلاله جزءاً من جيشه لفتح فارس وما جاورها ، فتم له ذلك ، ثم لم تلبث إصفهان أن سقطت فى يده فى المحرم من عام ٤٤٣ (١٠٥١ م) ، فأسقط بذلك دولة الديالمة من آل كاكويه ، كما بسط نفوذه على يزد وما جاورها[٢] .

وبقى عليه أن يتوجه إلى إقليم آذربيجان ليؤكد سيطرة السلاجقة عليه ، فسار إليه فى عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ، ودخل تبريز ، ثم استطاع أن يبسط نفوذ السلاجقة على جميع أجزاء آذربيجان ، وأن يجعله يمتد حتى يشمل بعض أجزاء بلاد الروم (آسية الصغرى) ؛ ثم رجع إلى عاصمته الرى[٣] ، وكان قد فرغ بذلك من فتح أكثر أجزاء إيران ، وبسط نفوذ السلاجقة على إيران ، وبعض البلاد المجاورة لها ، فأخذ يستعد لدخول بغداد ، وبسط سيطرة السلاجقة على العراق .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤١ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤٢ هـ

(٣) المراجع السابق ، حوادث سنة ٤٤٦ هـ

سيطرة السلاجقة على العراق :

كانت الخلافة العباسية فى بغداد مضطربة مزعزعة ، تتلاعب بها أهواء البويهيين وقواد الجند — كما ذكرنا — دون أن يكون للخليفة قوة الصمود فى وجه تيار الأحداث ، فضلا عن القيام بدور إيجابى فيها ؛ فكانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت جسداً لا روح فيه ، لأن الخليفة كان دمية فى يد قائد جند الأتراك ، وكان هذا القائد يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة تامة ، فلم يكن الخليفة القائم بأمر الله يملك قوة واقتداراً أمام القائد التركى وجنوده .

وكان هذا القائد — فضلا عن ذلك — شيعيا ، يميل إلى الفاطميين فى مصر ، ويتصل بهم فى الخفاء ، ويحاول أن يبسط نفوذهم على بغداد إذا واتته فرصة مناسبة ، فيحقق لهم بذلك حلما طالما راودهم منذ استيلائهم على مصر فى عام ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) ألا وهو الانتقام للعلويين من العباسيين ، وإسقاط الخلافة العباسية ، والسيطرة على بغداد .

وكان نفوذ البويهيين — المتمسكين بالمذهب الشيعى — ما زال مبسوطا فى بغداد ، فكان اسم الملك الرحيم أبى نصر البويهى ، يذكر فى الخطبة فى بغداد ولكنه كان ضعيفا أمام

البساسيرى — قائد جند الأتراك — وجنوده ، ولم يكن على وفاق معه ، فانعدم التعاون بينهما ، كما لم يكن هناك تفاهم بين الخليفة والبساسيرى[١] .

وقد شجعت هذه العوامل جميعها السلطان طغرل على التوجه إلى بغداد لبسط نفوذ السلاجقة عليها ؛ فسار فى المحرم من عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) إلى همـذان ، وأظهر أنه يريد الحج ، وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، فأمر عمـاله فى المناطق المجاورة للعراق العربى بجمع الجند ، ثم دخل العراق ، فأسرع الملك الرحيم البويهى إلى بغداد ، واستقر الرأى بينه وبين الخليفة العباسى القائم بأمر الله على التعاون مع طغرل[٢] ، فأمر الخليفة بأن يذكر اسم طغرل فى الخطبة ، وأن يكون لقبه السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين ، على أن يذكر بعد اسمه اسم الملك الرحيم أبى نصر ابن أبى كاليجار سلطان الدولة البويهى ، ثم دخل طغرل بغداد دخول الظافرين ، فاستقبل أروع استقبال ، واعترف الخليفة به سلطاناً على جميع المناطق التى تحت يديه[٣] .

---

(١) ارجع فى بيان هذا إلى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٤٤٦ و ٤٤٧ هـ

(٢) المرجع السابق حوادث سنة ٥٤٧ هـ

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٦

ولم يلبث طغرل أن أمر بالقبض على الملك الرحيم ، وأرسله أسيراً إلى الري ، فألقى في السجن حتى توفى في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)[1] .

وسلم الخليفة العباسي بالأمر الواقع ، فأمر — في رمضان من عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) — بإسقاط اسم الملك الرحيم من الخطبة[2] ، فأسدل الستار على دولة آل بويه ، بعد أن كانت مسيطرة على بغداد والخليفة ، وحلت محلها في السيطرة دولة السلاجقة .

أما البساسيري فكان متصلا بالخليفة المستنصر بالله الفاطمي منذ خروجه عن طاعة الخليفة العباسي القائم بأمر الله في عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ، فلما رأى « طغرل » يشق طريقه إلى قلب الخلافة العباسية ، انسحب من بغداد وما جاورها وولى وجهه شطر الموصل ، ووالى الاتصال بالفاطميين .

وأقام طغرل ببغداد ثلاثة عشر شهراً ، توثقت في خلالها صلاته بالخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وازدادت هذه الصلات توثقاً بزواج الخليفة في عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) بابنة جغرى بك أخى طغرل ، فقد ساعدت هذه المصاهرة على التقرب بين

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥٠ هـ

(٢) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٠ ، حمد الله : تاريخ گزيده ، ٤٣٧

البيتين العباسى والسلجوقى ، فاستقر بذلك نفوذ السلاجقة فى بغداد ، وتم لطغرل ما أراد .

غير أن القائد التركى البساسيرى لم يلبث أن جاهر بالعصيان وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الموصل ، فالتحم به أنصار طغرل بالقرب من سنجار فى شوال من عام ٤٤٨ ﻫ (١٠٥٦ م)[١] ولكنه انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، وواصل سيره حتى دخل الموصل ، ثم أمر بقراءة الخطبة فيها باسم الفاطميين فاضطرب الخليفة العباسى ، واحتمى بطغرل ، وعينه والياً على الموصل وبلاد الجزيرة ، فاضطر طغرل إلى السير من بغداد فى عاشر ذى القعدة من العام نفسه قاصداً الموصل ، وتمكن من قمع فتنة البساسيرى فى عام ٥٤٩ ﻫ (١٠٥٧ م) ، وبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عين أخاه إبراهيم إينال والياً على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعاً إلى بغداد بعد أن استتب نفوذ السلاجقة فى هذه البلاد ، فأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه بملك المشرق والمغرب ، واعترف بنفوذ السلاجقة على جميع الأراضى التى تحت أيديهم ، بينما فر البساسيرى صوب الشام[٢] .

غير أن إبراهيم إينال حدثته نفسه بالخروج مرة أخرى على

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٨ ﻫ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٧ .

أخيه طغرل فترك الموصل فى عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)[١] وولى وجهه شطر همذان فأسرع طغرل فى إثره وأوقع به هزيمة شنيعة فى معركة فاصلة بالقرب من الرى ، ولم يصفح عنه طغرل هـذه المرة ، بل أمر بقتله ليستريح من شره ، وخمدت فتنته نهائياً[٢] .

وانتهز البساسيرى فرصة اندلاع نيران هذه الثورة ، فعاود احتلال الموصل ، ثم انتهز فرصة ترك طغرل لبغداد ، وانشغاله بإخماد فتنة أخيه ، فهاجم بغداد نفسها ، ولم يجرؤ الخليفة على الوقوف فى وجهه ، فترك دار الخلافة ، وولى هارباً ، فأسره البساسيرى ، وأرسله إلى عانه ؛ واحتل بغداد فى اليوم الثامن من شهر ذى القعدة من عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)[٣] وأمر بقراءة الخطبة فى بغداد نفسها باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وحذف اسم العباسيين منها ، فحقق بذلك أمنية ، طالما تاقت إليها نفسه ، ونفوس الفاطميين جميعاً .

وقوى أمر البساسيرى فتمـكن من الاستيلاء على واسط والبصرة ، وفزع أنصار الخليفة إلى طغرل ، فثارت حميته ، فلم يكد يفرغ من إخماد فتنة أخيه حتى أسرع بالتوجه إلى بغداد ودعا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٠ هـ .

(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥ — ١٦

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٨ ؛ البندارى ، مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٦

الخليفة العباسى إلى العودة إلى دار الخلافة ، وعلم البساسيرى بذلك ففر إلى الشام ودخل الخليفة القائم بأمر الله وطغرل بغداد ، ثم أرسل طغرل جيشا لقتال البساسيرى فالتقى به فى الطريق إلى الكوفة ، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بمصرع البساسيرى فى منتصف ذى الحجة من العام نفسه ، ثم أرسلت رأسه إلى الخليفة وبذلك وضع طغرل حدا لطغيان البساسيرى وفتنته وأسقط اسم الفاطميين من الخطبة فى بغداد بعد أن ظل يذكر فيها أكثر من عام(١) .

وأصبح طغرل سيد الموقف فى العراق بعد هذه الانتصارات المتلاحقة ، فاستتب له كل شىء فى هـذه البلاد ، وبسط نفوذ السلاجقة فيها كما بسطه فى إيران ، وسيطر على الخليفة العباسى سيطرة تامة ، فلم يكن الخليفة يستطيع التصرف — حتى فى ممتلكاته الخاصة — بعد أن ترك لطغرل كل شىء ، وقبل أن يجرى عليه أرزاقه ورتب له ما يكفى لسد جميع نفقاته(٢) .

وبلغت قوة طغرل فى العراق حدا جعله يفكر فى مصاهرة

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٩ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .

(٢) حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٨

الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالزواج من ابنته[1] ؛ فكلف وزيره أبا نصر الـكندرى بالقيام بهذه المهمة . وقد فزع الخليفة العباسى من فـكرة مصاهرة السلاجقة ، وإعطاء ابنته لطغرل ، فرفض أول الأمر ، ولـكنه هدّد وخوّف ، فأرغمته عوامل الضعف والخوف على القبول مضطرا ، غير أن « طغرل » لم يهنأ بهذا الزواج طويلا[2] ، لأنه سرعان ما مرض ، ثم لم يلبث أن توفى فى الثامن من رمضان من عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وكان إذ ذاك فى السبعين من عمره ، بعد أن تمت للسلاجقة الغلبة على إيران والعراق ، واحتلت دولتهم مكانا مرموقا على مسرح التاريخ .

والواقع أن « طغرل الأول » هو المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة فى إيران والعراق ، فهو الذى رتب أمورها ، وبسط نفوذها ، وأظهر قوتها ، وكان هو سلطانا قويا مظفرا موفقا ،

---

(١) هذا ما ذكره البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٩ — ٢٢ ، وابن الأثير فى الكامل ، فى حوادث سنة ٤٥٤ هـ ، أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور ، ص ١١١ أن طغرل تزوج أخت الخليفة لا ابنته .

(٢) ذكر البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٥ ، وابن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٥ هـ أن طغرل دخل بابنة الخليفة وعاش معها سبعة أشهر ، وهذا هو الصحيح . أما الراوندى فقد ذكر فى راحة الصدور ، ص ١١١ — ١١٢ أن طغرل مرض وتوفى قبل أن تزف إليه ابنة الخليفة .

فقد انتصر فى أكثر الحروب التى خاض غمارها مما ساعده على تحقيق أغراضه ، وبلوغ أهدافه .

كما كان طغرل مسلما يحب أهل السنة ، ويميل إليهم ، ويحرص على أداء الفرائض ، والتقرب من أئمة الدين[١] ، فساعد هذا على ازدياد صلة إيران بالخلافة العباسية ، وظلت هذه الصلة قوية فى أثناء حكم السلاجقة ، مما كان له أبعد الأثر فى اختلاط الإيرانيين بالعراقيين ، وامتزاج حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبحا يمثلان معاً صورة واضحة صادقة للحضارة الإسلامية ، فى مرحلة من أهم مراحلها .

وقد وضع طغرل أساسا متينا لدولة السلاجقة ، ببسط نفوذها على إيران والعراق ، فاستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ، ومجدا عظيما ؛ وانتهى بانتهاء عصر طغرل دور التأسيس ، وأخذ السلاجقة من بعده يرتفعون بالبناء حتى أشرف على بلاد الروم ، وسواحل البحر الأبيض المتوسط والهند والصين ؛ حينما بلغ السلاجقة أوج قوتهم ،وشامخ رفعتهم .

وقد ساهم أبو نصر منصور بن محمد الكندرى[٢] وزير

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢) ارجع إلى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦ ﻫ ، لمعرفة شىء عن الكندرى وسيرته :

طغرل — وكان يلقب بعميد الملك — بنصيب وافر فى إرساء ذلك الأساس ، وتدعيم أركانه ، وكان لكفاءته أثر كبير فى ازدهار دولة السلاجقة ، وارتفاع شأنها فضلا عن أنه كان من الكتاب المجيدين باللغتين العربية والفارسية ، فاكتسب منصب الوزارة بفضله أهمية كبيرة ، وصار هدفا ، تتطلع إليه الأبصار ، وتهفو إليه النفوس ، فأصبح مثاراً لكثير من المنازعات التى لعبت دورا مهما فى توجيه سير الأحداث فى دولة السلاجقة .

الفصل الرابع

السلاجقة فى أوج قوتهم

التنازع حول العرش :

توفى طغرل الأول عن دولة قوية ، راسخة الأركان ، ثابتة البنيان ، ولم يكن له ولد يرث عرش السلاجقة من بعده ، فبرزت مشكلة ولاية العهد ، عقب وفاته ، وأصبحت مثار تنافس بين أفراد البيت السلجوقى .

وكان أخوه چغرى قد توفى فى رجب من عام ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) تاركا عدداً من الأبناء ، كان أكبرهم ألپ آرسلان ، خلفه فى حكم خراسان وما وراء النهر ، وكان حاكما على هذه الأجزاء حينما توفى عمه طغرل فى عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) يعاونه وزير قوى النفوذ ، واسع الحيلة ، يسمى أبا على حسن بن على بن اسحق الطوسى ويلقب بنظام الملك ، فرأى ألپ آرسلان أنه أحق الناس باعتلاء عرش السلاجقة بعد عمه طغرل ، وتاقت نفس نظام الملك إلى أن يصبح وزيراً لسلطان السلاجقة فشجع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥١ هـ .

ألب آرسلان على إعلان نفسه سلطاناً على السلاجقة ، وخليفة لعمه الراحل .

غير أن طغرل كان قد تزوج بأرملة أخيه چغرى فأقامت معه فى الرى ، هى وابنها سليمان بن چغرى ، فاستطاعت أن تؤثر عليه ، وتجعله يختار ابنها هذا ولياً لعهده — رغم صغر سنه — ، فلم يكد طغرل يتوفى حتى نفذ وزيره أبو نصر الكندرى وصيته ، فأجلس سليمان على عرش السلاجقة فى الرى ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه(١) .

وترامت الأنباء إلى سمع ألب آرسلان بجلوس سليمان على العرش فى الرى ، فعز ذلك على نفسه ، ولم يطق صبراً ، فصمم على السير إلى مدينة الرى ، ووجد تصرفه هذا هوى فى نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقى ، فاختاروا جانبه ، فلم يجد الكندرى بداً من الخضوع للأمر الواقع خشية أن يحل عليه غضب ألب آرسلان وطمعاً فى أن يظل متمتعاً بشىء من الجاه والسلطان ، فأعلن هو أيضاً انضمامه إلى ألب آرسلان ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى الرى ، وبأن يكون سليمان ولياً لعهده(٢) .

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٦

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٥ هـ

وهكذا انتهت فتنة سليمان بن چغرى واستتب الأمر لأخيه الأكبر ألپ آرسلان فى ذى الحجة سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م)[١]، واعترف أكثر أفراد البيت السلجوقى به سلطاناً، فأخذ يستعد للجلوس على عرش السلاجقة فى الرى.

ولكن فتنة أخرى لم تلبث أن أطلت برأسها، وقد أيقظها شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل ابن عم چغرى، فأعلن أنه أحق بالسلطنة من ألپ آرسلان، ورفع علم الثورة، ثم توجه إلى الرى، وتمكن من الاستيلاء عليها، وأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة.

ولكن ألپ آرسلان أسرع بالتوجه إلى الرى على رأس جيش كبير، مصطحبا معه وزيره نظام الملك، وخرج قتلمش للقائه، فالتحم الجيشان فى معركة طاحنة فاصلة بالقرب من الرى، انجلت عن هزيمة قتلمش ومصرعه، فدخل ألپ آرسلان الرى فى آخر المحرم من عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٣م[٢])، فانتهت بذلك مشكلة الملك، واستتب الأمر لألپ آرسلان دون منازع.

---

(١) الراوندى: راحة الصدور، ص ١١٦.

(٢) البندارى: مختصر تواريخ آل سلجوق، ص ٢٩؛ ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٤٥٦ هـ

التنافس على الوزارة :

ولم يكد التنازع حول عرش السلطنة ينتهى ، حتى لاحت فى أفق السلاجقة مشكلة جديدة هى مشكلة كرسى الوزارة ، فبدأ التنافس بين نظام الملك وعميد الملك على الظفر بهذا الكرسى ؛ فقد كان عميد الملك الكندرى وزير طغرل مقيما فى الرى حينما دخلها السلطان الجديد ألپ آرسلان ووزيره نظام الملك ، فأكد ولاءه للسلطان وتقرب إليه بالهدايا ، حتى تطمئن نفس السلطان إليه ، ولاحظ نظام الملك أن كثيراً من الجند يحبون الكندرى ويلتفون حوله ، فخشى بأسه وأيقن أن الكندرى يهدف إلى الاحتفاظ بمنصب الوزارة الذى وليه منذ عهد طغرل ، فاستقر رأى نظام الملك على البطش بالكندرى قبل أن يظفر بشىء ، وأخذ يحرض السلطان عليه ، ويجسم له خطره ، ولم يزل بالسلطان حتى أوجس فى نفسه خيفة منه ، فأمر بالقبض عليه ، وأودعه السجن فى مدينة نسا[١] ، وخلص كرسى الوزارة لنظام الملك دون منافس ، ولكنه لم يقنع بهذا ، بل استمر فى تحريض السلطان على الكندرى حتى أمر بقتله فى السجن ؛ وهدأت

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٧ ، وقد ذكر البندارى فى مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٩ وابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ٤٥٦ هـ أن الكندرى سجن عاما ثم قتل فى مدينة مرو الرود .

بذلك نفس نظام الملك ، واطمأن إلى استتباب الوزارة له ، كما استتب العرش لألب آرسلان .

وكان قتل الكندرى سنة سيئة فى عصر السلاجقة ، فقد أدى العمل بها إلى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، واكتوى نظام الملك نفسه بنارها فيما بعد .

وقد حدثنا التاريخ أن الكندرى نبه إلى خطر هذه السنة السيئة قبيل قتله ، فالتمس من قاتله أن يحمل عنه — بعد قتله — رسالتين شفويتين ، وأن يبلغ إحداها للسلطان والأخرى للوزير ؛ أما رسالته إلى السلطان فهى قوله : « إن هذه أجل خدمة أديتها لى ، فقد منحنى عمك الدنيا لأحكمها ومنحتنى أنت الآخرة ؛ لأن أمرك بقتلى جعلنى أحظى بالشهادة ، وأظفر بأجر الشهداء ، فظفرت بفضل خدمتك هذه بالدنيا والآخرة معاً » .

وأما رسالته إلى الوزير فهى قوله : « إنك قد سننت سنة سيئة بقتل الوزراء ، وإنى لأرجو أن تنفذ هذه السنة فيك وفى أعقابك »[١] .

ومهما يكن من شىء ؛ فإن مشكلتى العرش والوزارة قد استنفدتا عاما وبضعة أشهر من عصر ألب آرسلان ، ثم أخذت أوضاع السلاجقة تستقر فى بداية عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) ،

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٧ — ١١٨ .

فبدأ ألب آرسلان يفكر فى إقامة بناء الدولة معتمداً على الأساس الذى أرساه طغرل فى إيران والعراق .

* * *

أهداف السلاجقة :

تدارس ألب آرسلان الأمر مع وزيره نظام الملك ، ثم رسما معا سياسة السلاجقة ، وحددا أهدافهم القريبة والبعيدة ، فاتفق رأيهما على ضرورة بسط نفوذ السلاجقة على مناطق جديدة ، حتى تتسع رقعة دولتهم ، فيعظم شأنهم .

وكان ألب آرسلان — كعمه طغرل — قائداً ماهراً مظفراً ، كما كان وزيره نظام الملك رجلا حكيما ، وسياسياً محنكا ، بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، فرجحا ألا تقتصر سيطرة السلاجقة على العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، بل يجب أن تتعداها إلى الأقاليم المسيحية المجاورة لإيران كبلاد الأرمن وبلاد الروم ، لأن هذا سوف يكسب حروب السلاجقة صبغة دينية ، ويعطيها طابع الجهاد فى سبيل الله ، لنصرة دينه ، ونشره فى الآفاق ، فترتفع راية الإسلام خفاقة فى مختلف الأرجاء[1] .

غير أن ألب آرسلان فوجئ بفتنة جديدة ، يقودها عمه

---

(١) الراوندى راحة الصدور ص ١١٨ وما بعدها .

« بيغو » الذى كان والياً على هراة ، فقد عز على نفسه أن يصير تابعاً لابن أخيه ، فرفع راية العصيان ، وحاول الاستقلال بالمناطق الخاضعة لحكمه ، فاضطر ألپ آرسلان إلى تغيير خط سيره ، فولى وجهه شطر هراة ، لتأديب « بيغو » ورده إلى طاعته ، وقاتله بالقرب من هذه المدينة فى عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م)، وانتصر عليه انتصاراً مؤزرا ، تعهد بعده بإطاعته ، فانتهز ألپ آرسلان هذه الفرصة ، وقام بتأديب كل من تخشى ثورتهم فى تلك النواحى ، وأعاد الأمن إلى نصابه فى جميع أنحاء خراسان وما وراء النهر ، ثم رجع إلى نيسابور .

واستقر رأى ألپ آرسلان على العمل على تثبيت أركان حكمه فى البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة قبل التطلع إلى فتح أقاليم جديدة ، فجعل أهدافه القريبة تدعيم نفوذه فى إيران والعراق ، وجعل أهدافه البعيدة فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته من ناحية ، وإسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتوحيد العالم الإسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة من ناحية أخرى .

وأخذ ألب آرسلان يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف ، فاستغرق هذا منه بضع سنوات — إلى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠م) — وبدأ بالأجزاء الجنوبية ؛ فتوجه من خراسان إلى إصفهان ، وأمن

حدود دولته الجنوبية بالاستيلاء على شبانكاره فى عام ٤٥٨ ﻫ (١٠٦٥ م)، وعلى فارس فى عام ٤٥٩ ﻫ[١] (١٠٦٦ م)، ثم توجه إلى كرمان[٢]، فأحسن أخوه قاورد استقباله، وطمأنه على استتباب الأمن فى تلك الناحية من بلاده، ثم رجع إلى مرو بعد أن استوثق من رسوخ حكم السلاجقة فى إيران والعراق، وزال ما كان يخشاه من قيام فتن وثورات داخلية، فأخذ يرنو ببصره إلى أهدافه البعيدة، ووجد أن الفرصة قد تهيأت لتحقيق هذه الأهداف، فعقد العزم على الشروع فى تنفيذها، كما فكر فى تأمين ظهره حتى لا يطعن من الخلف، وهو مشغول بتحقيق أهدافه، وكانت ترابط على حدوده فى تلك النواحى دولتان لا تزال فيهما بقية من قوة هما الدولة الغزنوية فى غزنة والهند، والدولة الخانية فى ما وراء النهر، فرأى ألب آرسلان ووزيره نظام الملك أن خير وسيلة هى أن يرتبط السلاجقة بالغزنويين والخانيين برباط المصاهرة، فكانت ابنة طمغاج خان ملك الخانيين من نصيب ملكشاه بن ألب آرسلان وولى عهده، وهدأ بال السلاجقة، فانصرف سلطانهم إلى تحقيق أهدافهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى حوادث سنة ٤٥٩ ﻫ.

(٢) كان قاورد حاكما على ولاية كرمان منذ عام ٤٣٣ ﻫ (١٠٤١ م).

الكبرى[1]، وقرر أن يبدأ بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته ، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم .

وكان أهلها يكثرون من الإغارة على إقليم آذربيجان ، حتى أصبحوا مصدر قلق لسكانه فأراد ألب آرسلان أن يضع حداً لغاراتهم ، ويضع يده على بلادهم ، لأنها كانت النوافذ التى تطل على ممتلكات الروم (الدولة البيزنطية) .

* * *

النزاع بين السلاجقة والروم :

تجاوز ألب آرسلان إقليم آذربيجان وأخذ يغزو البلاد المسيحية المجاورة له ، وتمكن — فى مدة قصيرة — من الاستيلاء على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتى وان وأورميه ، ووضع يده على قلاعها ، كما فتح جورجيا ، وبلاد الأرمن ، وعمل على نشر الإسلام وحضارته فى هذه المنطقة ، حتى تأخذ غزواته طابع الجهاد فى سبيل الله ، والعمل على نصرة دينه ، فكان طبيعياً أن يحدث احتكاك بين السلاجقة والروم ،

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٨ وقد بلغت به المبالغة إلى حد قوله إن ألب آرسلان غزا جميع أنحاء العالم .

فقد أغضبت فتوحات ألب آرسلان رومانوس ديوجينس Romanos Diogènes إمبراطور الروم ، فصمم على القيام بحركة مضادة ، وسار على رأس جيش كبير لغزو بلاد الشام ، وتمكن من التغلب على أمير حلب ، الذى كان حينذاك يدين بالولاء للخليفة الفاطمى فى مصر .

وعلم ألب آرسلان بذلك ، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه لفتح هذه البلاد ، وتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة وهو القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر والشام . فلما ترامت الأنباء إلى والى حلب بقرب وصول جيش السلاجقة وكان يدرك قوتهم ، وشدة بأسهم ، أيقن أنه لا طاقة له بهم ، فأعلن انضمامه تحت لوائهم ، وحذف اسم الفاطميين من الخطبة ، وأحل محله اسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، واتقى بذلك خطر الغزو السلجوقى لبلاده .

وقد تمكن جيش ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، كما استطاع أن يستولى على بيت المقدس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ثم حاصر دمشق غير أنه لم يتمكن من فتحها فى ذلك الوقت .

ومهما يكن من شىء ، فقد نجح الجيش السلجوقى فى بلاد

الشام فى تأمين الجيش السلجوقى الرئيس الزاحف إلى بلاد الروم(١) وتمهيد سبيله .

وفهم رومانوس خطة السلاجقة ، فعزم على القيام بحركة هجوم مضادة فجمع جيشا جرارا يضم أخلاطا من الشعوب المسيحية تمثل الروس والفرنسيين والبلغاريين ، واليونانيين والجورجيين ، وذرع به بلاد الروم ، ثم عسكر فى نواحى « ملازكرد » بالقرب من مدينة « أخلاط » .

فأحس ألب آرسلان أنه أمام خطر داهم ، فأسرع بالهجوم على مقدمة جيش الروم ، واستطاع أن يحرز نصرا ، ولكنه لم يلبث أن أيقن أنه من الصعب على جيشه أن يقاتل جيشا ضخما كجيش الروم ، وأدرك أن الصلح قد يكون خيراً له ، وفضل أن يرجئ غزو بلاد الروم إلى فرصة أخرى بعد أن يستكمل استعداداته ، فأرسل رسولا إلى رومانوس يدعوه إلى الصلح ، غير أن هذا الإمبراطور أشاح بوجهه فى غطرسة وكبرياء ، ولم يستمع إلى رسول السلاجقة ، فقد اغتر بجيشه الضخم ، فرد الرسول قائلا إن الصلح لن يتم إلا فى الرى عاصمة السلاجقة .

فاتضح لألب آرسلان هدف الروم الحقيقى ، فأعلن بين جنوده أن الإسلام فى خطر ، وأنه لا سبيل إلى إنقاذه إلا بالقضاء

---

(١) كانت آسية الصغرى تسمى فى ذلك الوقت بلاد الروم .

على هذه العصبة الفاجرة التى تريد الكيدله ، ودعاهم إلى الاستماتة فى القتال ، وبذلك طبع ألب آرسلان الحرب بطابع دينى ، وجعلها جهاداً فى سبيل الله .

واشتدت حماسة جنود السلاجقة ، فهجموا على رومانوس وجنوده فى جرأة واستماتة ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية الوطيس بالقرب من ملازكرد ، وأمعن السلاجقة فى الروم تقتيلا وتجريحا ، حتى فرشوا ساحة القتال بجثثهم ، ووقع رومانوس نفسه أسيراً فى أيديهم ، وحاقت الهزيمة بجنوده وسيق رومانوس إلى ألب آرسلان فى ذلة وصغار ، فأمر بجلده ثم سجنه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتداه قومه بمبلغ كبير من المال ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة مدتها خمسون عاما بين الطرفين ، تعهد الروم فيها بدفع الجزية للسلاجقة ، وصرف رومانوس نظره عن هذا الجزء من آسيا الصغرى نهائيا ، ثم رجع إلى دياره مدحوراً .

وقد كانت موقعة ملازكرد نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وتاريخ غربى آسية بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم فى أكثر أجزاء آسية الصغرى مما يساعد على القضاء على الدولة نفسها على أيدى الأتراك العثمانيين بعد ذلك .

وهكذا تابع الأتراك السلاجقة الكفاح الذى قام به العرب

ضد الروم ؛ فقد كان أباطرة الروم يحرصون على وضع أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها ، ويعدونها قنطرة بين الغرب والشرق ، مما جعل هذه البلاد موضع نزاع بين الفرس والروم قبل الإسلام ، غير أن كفة الروم كانت هى الراجحة غالبا ؛ ثم حاول المسلمون أن يضعوا أيديهم عليها ، أو أن يبسطوا عليها نفوذهم فى أية صورة من الصور ، ولكن نفوذ الروم بقى قويا طاغيا ، حتى حدثت موقعة ، ملازكرد هذه ، فأخذ هذا النفوذ ينحسر تدريجيا ، حتى تلاشى تماما .

وطبيعى أن نتيجة هذه الموقعة كانت بعيدة الأثر فى الناحية السياسية ، ومختلف نواحى الحضارة الأخرى ، فقد كانت الحضارة اليونانية ، والآداب المسيحية هى التى تسيطر على هذه البلاد ، وتمتد منها إلى حدود آذربيجان ، فلما أفل نجم الروم من أفق هذه المنطقة ، وأخذ نفوذهم فى الانكماش وبدأت أجزاء بلاد الروم تفلت من أيديهم جزءاً فى إثر جزء ، وتنضم إلى العالم الإسلامى ، تبع ذلك حلول الحضارة الإسلامية محلها ؛ وجاءت الحضارة الإسلامية بعقائدها ونظمها وآدابها وجميع مظاهرها ، فأخذ الإسلام والحضارة الإسلامية ينتشران فى تلك البلاد ، كما بدأت اللغة الفارسية تنتشر فيها ، فقد كانت الفارسية هى لغة الجنود الفاتحين لهذه البلاد ، وهى اللغة الإسلامية التى تلى العربية فى أهميتها ، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد

ذلك ، وكان هذا كله بداية لتطور جديد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة ، ظهرت ثماره بعد ذلك على أيدى الأتراك العثمانيين .

وكان فتح بلاد الروم نتيجة طبيعية منطقية لموقعة ملازكرد وكان أشبه بفتح بلاد الهند على يد السلطان محمود الغزنوى من قبل ؛ فكما نشر هذا الفتح نفوذ المسلمين وحضارتهم فى بلاد الهند ، ونشر اللغة الفارسية فيها ، وكان سبباً فى إيجاد اللغة الأوردية ، كلغة إسلامية لها آثار ملموسة حتى وقتنا هذا ، فقد يسر انتصار ألب آرسلان فى موقعة ملازكرد إحداث هذا التحول الكبير فى منطقة آسية الصغرى ، مما يجعل هذه الموقعة إحدى المواقع الموجهة فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وتاريخ السلاجقة وغربى آسيا بصفة خاصة .

نهاية ألب آرسلان :

ولكن ألب آرسلان لم يعش حتى يجنى ثمار نصره العظيم ، ويواصل فتوحاته ويحقق أهدافه البعيدة جميعها فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من هذا الفوز الكبير ، على يد أحد الثائرين(١) .

فقد دب خلاف بينه وبين أصهاره من الدولة الخانية ، وكان ألب آرسلان إذ ذاك مشغولا يستعد لقتال الروم ؛ فلما فرغ من أمر

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ — ١٢١

رومانوس فكر فى التوجه إلى الشرق لقمع فتنة الخانيين ، فعبر نهر جيحون فى أوائل عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) وهاجم إحدى القلاع الثائرة واستولى عليها ، وقبض على قائدها ، وكان يسمى يوسف الخوارزمى ، ونظراً لما أبداه هذا القائد الثائر من عناد فى مقاومته ، فقد رغب ألب آرسلان فى قتله بنفسه ، ويقال إنه أمر بإحضاره أمامه ، فلما مثل بين يديه رماه بسهم ، ولكن السهم أخطأه ، وكان يوسف هذا يخفى سكيناً فى ساقه فأخرجها ، وهاجم السلطان على حين غرة وطعنه بها طعنة نافذة فتوفى متأثراً بجراحه ، بعد أربعة أيام من هذه الحادثة فى العاشر من ربيع الأول من العام نفسه ، ودفن فى مدينة مرو بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف عام تقريباً(١) .

والواقع أن عصر ألب آرسلان يعد من أهم عصور سلاطين السلاجقة ، لأنه استطاع أن يوطد دعائم دولتهم ، وأن يرتفع بالبناء حتى أصبح شامخاً ، يحس العالم فى ذلك الوقت بوجوده ، ويستشعر قوته وتماسكه .

وقد أبرز عهد ألب آرسلان قوة السلاجقة ، كما أظهر قوة العالم الإسلامى ، وجعلها مرهوبة ، يحسب لها العالم المسيحى ألف

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

حساب ؛ حقيقة إن الدول المسيحية قامت بعد ذلك بحملات صليبية متعددة على الشرق الإسلامى ، وانتصرت فى بعض الأحيان ، ولكنها باءت بالفشل فى النهاية على يد صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

وقد قام نظام الملك — وزير ألب آرسلان — بدور موجه فى سياسة الدولة السلجوقية ، فاشترك بحسن سياسته ، ودقة تدبيره فى إنجاح أهداف السلطان ، فأعطى لمنصب الوزارة أهمية وورونقاً وجعله منصباً مرموقاً تتطلع إليه أبصار كبار رجال الدولة ، ويكون مثاراً للتنازع بينهم ، مما سوف نتبينه بوضوح بعد اختفاء نظام الملك من مسرح السياسة السلجوقية فى أواخر عهد ملكشاه .

وظهرت قوة هذا الوزير بوضوح بعد مصرع ألب آرسلان ؛ فقد قام على مواصلة تنفيذ السياسة التى رسمها فى عهد هذا السلطان، فلم تضع مجهودات ألب آرسلان سدى بعد وفاته بل ظل البناء قائماً بفضل حكمة وزيره ، ومعاونته لابنه وخليفته ملكشاه حتى استطاع أن يلى العرش ، ويوطد سلطنته ويوسع حدود بلاده .

* * *

تجدد النزاع على عرش السلاجقة :

كان ملكشاه يرافق أباه فى حملته التى قام بها لتاديب الخانيين ،

فلما قتل والده ، رجع هو على رأس جيش السلاجقة إلى خراسان ، وجلس على العرش فى نيسابور ، وأسند الوزارة إلى نظام الملك ، وكتب إلى حكام الأطراف بذلك حتى يطيعوا أمره ، ويخضعوا له كما كتب إلى الخليفة العباسى فى بغداد ليصدر التفويض له بالسلطنة ويأمر بأن يذكر اسمه فى الخطبة(١) ، وهكذا استقام الأمر لملكشاه فتوجه من نيسابور إلى الرى ليكمل ما بدأه أبوه .

ولكن مشكلة الأحقية بالعرش بدأت تطل برأسها من جديد ؛ فإن قاورد لم يكد يعلم نبأ وفاة أخيه ألب آرسلان ، حتى ترك كرمان وتوجه إلى الرى ، وأعلن أنه أحق بالسلطنة من ابن أخيه ملكشاه ، وأخذ يستولى على الأقاليم المختلفة ، وهو فى طريقه إلى الرى ، غير أن ملكشاه استطاع هو ووزيره نظام الملك أن يسبقاه فى الوصول إلى هذه المدينة ، ثم سارا منها للقائه فى الطريق ، فالتقيا به بالقرب من همذان ، وتمكنا بمساعدة أمراء العرب والأكراد من الانتصار عليه ، ثم سيق قاورد أسيراً أمام ابن أخيه ملكشاه فأمر بقتله ليتخلص من شره(٢)، وأقر كرمان

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٦ — ١٢٧ ، البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٨ ، محمد بن إبراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ١٢ .

بيد أولاده ، فتوارثوا حكمها إلى عام ٥٨٣ ﻫ (١١٨٧ م) وسميت دولتهم فى التاريخ باسم « سلاجقة كرمان » ، وأقطع ملكشاه العرب والأكراد إقطاعات كثيرة لما أبلوه فى الحرب من بلاء حسن.

* * *

وارتفع شأن نظام الملك ، فرد السلطان الأمور كلها إليه ، وأقطعه إقطاعاً وافراً ، وخلع عليه ، ولقبه ألقاباً من جملتها أتابك ، ومعناه الأمير الوالد ، لما ظهر من كفايته وشجاعته ، وحسن سيرته[1] .

فتوحات ملكشاه :

لم يقتصر ملكشاه على الولايات التى ورثها عن أبيه ، بل صمم على تنفيذ برنامج أبيه ، وتوسيع دولة السلاجقة ، وبسط نفوذها حتى يشمل جميع أنحاء العالم الإسلامى ، بما فى ذلك الأقاليم التى تحت سيطرة الفاطميين ؛ فولى وجهه شطر الشام ، وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، لعله يستطيع غزو مصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية التى كانت تتداعى فى ذلك الوقت .

وكان ملكشاه — كما علمنا — قد توجه لفتح الشام أثناء

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥ ﻫ .

حياة والده ألب آرسلان ، ووصل جيشه إلى بيت المقدس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، كما خضع له والى حلب ، فلما ولى العرش ، أخذ يتمم ما بدأه فى عهد والده ، فاستولى على أكثر بلاد الشام حتى عام ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) ، ثم أرسل جيشه لضم مصر ، فظل يتوغل فى الأراضى المصرية حتى بلغ القاهرة وحاصرها ، غير أنه لم يستطع فتحها ، لاستماتة الفاطميين فى الدفاع عنها ، فارتد جيش السلاجقة إلى الشام ، ولم يفكر فى غزو مصر مرة ثانية ، ولكنه حرص على تأمين بلاد الشام ، وانتزاعها من ملك الفاطميين .

ثم أسند ملكشاه أمر بلاد الشام إلى أخيه تاج الدين تتش فى عام ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الأقاليم المجاورة لها ، وضمه إلى حوزة السلاجقة ، فتوجه تتش فى عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) إلى حلب ليردها إلى منطقة نفوذه ، فلما وصل إليها حاصرها ، حتى حلت بأهلها مجاعة شديدة ؛ وانتهز الفاطميون فرصة انشغال تتش بإعادة فتح حلب فأرسلوا جيشاً لفتح دمشق ، فعكف الجيش الفاطمى على حصار هذه المدينة ؛ ولم يجد حاكمها بداً من الاستنجاد بتتش فأسرع تتش لنجدته ، فلما سمع الجيش الفاطمى بأنباء اقترابه انسحب دون قتال[1] ، ودخل تتش دمشق دخول الظافرين فى عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

واتخذها مقراً له ، وأسس فيها دولة سلاجقة الشام ، وحاول أن يحسن سيرته ، ويعدل فى حكمه .

وعمل ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة فى آسية الصغرى ، وكانت هذه البلاد قد فتحت أبوابها فى وجه السلاجقة بعد موقعة ملازكرد ، فعين — فى عام ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) — سليمان بن قتلمش بن إسرائيل[١] والياً عليها ، فوضع يده على ولايتى قونية وآق سرا ، ويعد فى الحقيقة المؤسس الفعلى لدولة سلاجقة الروم التى ظلت تحكم هذه البلاد إلى عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) .

وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة فى بلاد آسية الصغرى ثم حاول توسيعه بفتح أقاليم جديدة ، ففتح مدينة أنطاكية فى عام ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) وكانت من بلاد الشام ، غير أنها كانت تحت حكم قياصرة الروم منذ عام ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م)[٢] ، ولذلك فإن فتحها كان بالغ الأهمية ، لأنه جعل نفوذ الدولة السلجوقية يمتد إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه أشعل نيران الفرقة بين أفراد البيت السلجوقى ، فبدأ التنازع بين سليمان وتتش ، فقد حاول كل منهما أن تكون منطقة نفوذه أوسع ، ففكر فى الاستيلاء على جزء من الأقاليم الخاضعة لنفوذ الآخر .

---

(١) سليمان هذا هو ابن عم چغرى بك جد السلطان ملكشاه .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٧ هـ .

وكان سليمان هو الذى بدأ بالعدوان ، فقد فكر فى الاستيلاء على حلب ، وضمها إلى منطقة نفوذ سلاجقة الروم ، بعد أن تم له فتح أنطاكية ، فسار إليها ، وحاصرها حصاراً شديداً ، حتى استنجد حاكمها بتتش ، فصادف ذلك هوى فى نفسه ، لأنه كان قد أوجس خيفة من اتساع نفوذ سليمان ، وامتداده إلى بلاد الشام ، فأسرع لصد سليمان عن حلب ، ودارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة بالقرب من هذه المدينة انتهت بانتصار تتش ، وقتل سليمان فى صفر من عام ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)(١) ، ودخل تتش حلب ، وضمها إلى حوزة سلاجقة الشام .

وأحس ملكشاه بما حدث فى هذه الأجزاء من دولة السلاجقة فآثر أن يتوجه بنفسه ليطمئن على استتباب الأمور فيها ، فتوجه فى شهر جمادى الآخرة من العام نفسه من إصفهان إلى بلاد الجزيرة والشام عن طريق الموصل ، وأخضع ما صادفه فى طريقه من قلاع كانت لا تزال تحت سيطرة الروم مثل الرها ، فلما اقترب من حلب أخلاها تتش ورحل إلى دمشق ، فدخل ملكشاه المدينة ، وطمأن أهلها ، ثم رحل منها إلى بغداد ، وأقر حكم تتش على بلاد الشام ، كما أقر حكم أبناء سليمان بن قتلمش على بلاد الروم .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩ هـ ، ج ٨ ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

وأقام ملكشاه بعض الوقت فى بغداد ، وزفت ابنته من تركان خاتون إلى الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله فى أوائل عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، فازداد نفوذ السلاجقة استقرارا فى جميع المناطق التى تحت أيديهم ؛ وأصبحت قوتهم أكبر قوة فى الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ؛ ولم يبق أمام ملكشاه إلا أن يخضع إقليم ما وراء النهر ، حتى يثأر لوالده الذى قتل فى هذه الديار قبل ذلك ؛ وقد واتته الفرصة فى عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) ، حينما شكا له علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمد خان ، فقد كان صبيا ظالما قبيح السيرة فنفر الناس منه ، وكتبوا إلى السلطان سرا يستغيثون به ، ويسألونه القدوم عليهم ، ليملك بلادهم[1] ؛ وكانت لهذا دلالة بالغة ، هى أن المسلمين فى تلك البقاع ينظرون إلى السلاجقة على أنهم حماة الإسلام والمسلمين ؛ ولم يضع ملكشاه الفرصة ، فغادر إصفهان يرافقه وزيره نظام الملك ، وتوجه إلى خراسان حيث أعد جيشا كبيراً ، ثم عبر نهر جيحون ، وهاجم بلاد ما وراء النهر ، وفتح بخارى وسمرقند ، وهزم أحمد خان وقبض عليه ، وأخذه أسيراً ، وهكذا بسط ملكشاه نفوذ السلاجقة على هذا الإقليم ثم لم يلبث أن خضع له والى كاشغر ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ، ج ٨ ص ١٤٨ — ١٥٠

فامتد نفوذ السلاجقة شرقا كما امتد غربا(١) ، فشمل المناطق الواقعة بين كاشغر فى الشرق وأنطاكية فى الغرب ، أى امتد من حدود الهند شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا ، وانضوت تحت لوائه أقاليم ما وراء النهر وإيران وآسية الصغرى والعراق والشام .

وقد استغل نظام الملك اتساع نفوذ السلاجقة ، فأراد أن يشعر السلطان ملكشاه به من ناحية ، وأن يظهر للعالم المسيحى مدى هذا الاتساع من ناحية أخرى ، فأمر أن يرسل إمبراطور الروم الجزية المفروضة على بلاده منذ موقعة ملازكرد إلى كاشغر بدلا من إصفهان ، وأن يرسل الملاحون الذين يعملون فى نهر جيحون الرسوم المقررة عليهم إلى أنطاكية ، حتى يظهر مدى اتساع ملك السلاجقة(٢) .

وقد رجع ملكشاه إلى خراسان بعد فتح ما وراء النهر ، ولكنه لم يلبث أن سمع أن قبائل الأتراك التى تقيم بالقرب من سمرقند قد أخذت تتمرد ، وتعصى من جديد ؛ بحجة أن مرتباتها لم تصل إليها ، كما علم أن أمير فرغانه ، وزعماء بعض

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ — ١٣٠

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ، وابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ .

القبائل المتمردة الأخرى قد انضموا إليها ، فلم يلبث ملكشاه أن استمان بحكمة وزيره نظام الملك ، ونفوذ زوجته تركان خاتون في إخماد الفتنة في سهولة ويسر ، فرجع الجميع إلى طاعته ، وعاد إلى إصفهان بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة في جميع أنحاء دولته المترامية الأطراف ، غير أن الأحداث لم تلبث أن تطورت تطوراً آخر ، فقد أطلت قوة جديدة رهيبة برأسها في عام ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، ولم تلبث أن ظهرت على المسرح في إيران ، وأخذت تمثل دوراً قوياً موجهاً في تاريخ الدولة السلجوقية كانت له آثار واضحة فيما بعد ، ونقصد بها قوة طائفة الإسماعيلية .

* * *

ظهور الإسماعيلية في إيران :

والإسماعيلية ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانوا يعتقدون أنه أحق بالإمامة من أخيه[1] موسى الكاظم ، وهم من شيعة آل علي ، الذين يعتقدون في سبعة أئمة آخرهم إسماعيل وأن إسماعيل هذا قد اختفى ، وسوف يظهر في الوقت المناسب لإصلاح الدنيا ، وهم يسمون السبعية ، لاعتقادهم في سبعة أئمة .

(١) النوبختي : فرق الشيعة ، ص ٥٧ — ٥٨ .

ومن أهم مبادئ الإسماعيلية إيمانهم بالإمامة ، لأن العقل البشرى وحده يقصر عن الوصول إلى معرفة الله معرفة حقة ، فيجب على الناس أن يختاروا إماماً يقوم بإرشادهم وتعليمهم ، فهو كالمعلم يرشدهم عن طريق التعليم إلى معرفة الله ، ولهذا السبب يسمون — أيضاً — التعليمية(١).

ومن أهم الأسس التى يقوم عليها مذهبهم إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، وأن الشخص الذى يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب ، وقد أدى هذا إلى تأويل أحكام الشريعة فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً ، وكان هذا سبباً فى جعل الناس يسمونهم « الباطنية(٢) » .

وقد انتشر دعاة الإسماعيلية فى جميع الأقطار الإسلامية للترويج لدعوتهم ، وأخذوا يدعون الناس سراً وجهراً إلى اتباع مذهبهم ، فتمكنوا من إقناع بعض الأمراء والقبائل والأفراد باتباع مذهبهم حتى تمكنوا من تأسيس عدة دول : منها دولة

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٦٤

(٢) حاول الشيعة عامة أن يفسروا قول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به قل كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب . . سورة آل عمران آية ٧ — تفسيراً يتفق مع وجهة نظرهم ، وهى أن الراسخين فى العلم يعلمون المعنى الباطن .

القرامطة فى عام ٢٨٧ هـ (٨٩١ م) ؛ وقد تمكن القرامطة من الاستيلاء على كثير من مدن الشام والعراق ، وعمان والبحرين ، كما استولوا على مكة ، وظلوا مدة يشيعون الرعب والقتل بين المسلمين فى تلك النواحى .

كما ارتفع شأن طائفة منهم فى شمالى إفريقية حتى كونوا — فى عام ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) — دولة فى تونس هى الدولة الفاطمية تمييزاً لأنفسهم عن العلويين فى إيران ؛ وقد قوى نفوذ الفاطميين حتى شمل مصر وجزءاً كبيراً من بلاد الشام ، وبلاد العرب ، كما قرئت الخطبة باسمهم مدة عام فى بغداد فى أثناء غلبة البساسيرى كما ذكرنا .

أما إيران فقد انتشر نفوذ الإسماعيلية فى بعض أجزائها ، فازداد نفوذهم فى العصر السامانى فى عهد نصر ابن أحمد ، وفى أثناء حكم الديالمة من آل زيار ؛ ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن ضعف بعد غلبة الغزنويين ، وتلاشى تقريباً فى بداية العهد السلجوقى لأن السلاجقة كانوا من أهل السنة ، فكانوا يتعقبون الإسماعيلية .

غير أن النفوذ الإسماعيلى عاود الظهور فى عصر ملكشاه ، وأصبح قوياً مرعباً على يد حسن الصباح أحد أنصار المذهب النزارى أحد أفرع المذهب الإسماعيلى .

وينتسب المذهب النزارى إلى نزار بن المستنصر بالله الفاطمى

(٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ، ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ، فى أواخر عهد المستنصر هـذا حدث نزاع حول ولاية العهد بين ابنيه نزار والمستعلى ، فانقسم الإسماعيلية بينهما غير أن نزاراً لم يستطع الوصول إلى الخلافة بعد موت أبيه ، فقد هزم ، ووقع أسيراً فى يد أخيه ، ثم توفى فى الأسر ، وإن كان أتباعه قد انتشروا فى أواخر عهد المستنصر ، وأخذوا يدعون الناس لاتباع المذهب النزارى[١]. وكان من بين الذين اعتنقوا هذا المذهب ، وتعصبوا له شخص يدعى حسن الصباح .

وقد رحل الصباح هذا — فى عام ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) — من الرى إلى إصفهان ، ثم أخذ يطوف بالبلاد فزار آذربيجان ، وبلاد الشام ، وزار مصر فى عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، وأقام فيها عاماً ونصف عام ، وانضم فى أثناء إقامته فى مصر إلى أنصار نزار ثم ترك مصر فى عام ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) ، ورحل إلى إيران ، وأخذ يدعو للمذهب الإسماعيلى النزارى ، فالتف حوله الكثيرون وأخذت قوته تتضاعف حتى عظمت شوكته ، فكون قوة استطاع أن يستولى بها على قلعة ألموت[٢] (٤٨٣هـ /١٠٩٧ م) ، ثم اتخذ هـذه القلعة الحصينة مقراً لدعوته أو لدولته الفتية ؛

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) كلمة ديلمية معناها « المكان الذى أرشد عليه العقاب » ارجع إلى تاريخ إيران لإقبال حاشية ، ص ١٦٥

وكثر مريدوه ، واستطاعوا تكوين معاقل كثيرة حصينة يتحصنون فيها ، فى أماكن جبلية فى شمالى إيران وشرقيها ، فى المنطقة الممتدة من حدود آذربيجان إلى كرمان ، خصوصاً فى ديلم وقومس وقهستان ، وكانت هذه المعاقل منيعة مرتفعة يصعب الوصول إليها .

وكان جيش الإسماعيلية يمتاز بالحماسة والاستعداد للتضحية بالنفس فى سبيل حماية الدعوة ، فكثر بينهم الفدائيون الذين استعانوا بهم فى نشر دعوتهم ، واغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلاطين الذين كانوا يقفون حجر عثرة فى طريقهم ، مما أثار قلقاً شديداً فى جميع أنحاء الدولة السلجوقية ، فعاش الناس فى خوف واضطراب ، يتوجسون خيفة من فدائيي الإسماعيلية .

مصرع نظام الملك :

ولعل أبرز عمل ينسب إلى الإسماعيلية فى عهد ملكشاه قتلهم لوزيره المشهور نظام الملك ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان من عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢[١]) .

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦٢

والواقع أن مكانة نظام الملك كانت قد تزعزعت فى أيامه الأخيرة لأسباب أهمها :

أولا : سيطرة أهله وأتباعه على مرافق الدولة المختلفة ، واستبدادهم وتحكمهم ، وتصرفهم فى الأمور وفقاً لإرادتهم ، وسوء استغلالهم لنفوذ نظام الملك ، الذى كان فى ذلك الوقت شيخاً كبيراً محطماً[1] ، لا يستطيع القيام بجميع أعباء الدولة ومهامها الجسام ، مما اضطره إلى الاستعانة بأبنائه العديدين ، وأقاربه وأتباعه فى إدارة[2] أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف . وقد استعان هؤلاء بنفوذ نظام الملك ، وقوة شخصيته ، وسوابق خدمته ، فطغوا وابتعدوا عن جادة العدل والصواب ؛ مما جعل السلطان ملكشاه ينفر من نظام الملك ، ويحاول التخلص منه ، وأتاح هذا لمنافسى نظام الملك وحساده ، فرصة الدس بينه وبين السلطان حتى يزيدوا نيران الخلاف بينهما اشتعالا .

ثانياً : الخلاف بين نظام الملك وتركان خاتون زوجة السلطان حول ولاية العهد . فقد كان نظام الملك يحب أن يلى العرش بركيارق الابن الأكبر لملكشاه ، بينما كانت تركان

---

(١) ولد نظام الملك فى عام ٤٠٨ هـ أى أنه كان حينذاك فى السابعة والسبعين من عمره .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ١٣٢

خاتون تريد أن يليه ابنها محمود[١] الذى كان فى ذلك الوقت طفلا لا يكاد يتجاوز الرابعة من عمره ، الأمر الذى جعل تركان خاتون تكره نظام الملك وتنضم إلى أعدائه .

وكانت ذات نفوذ كبير فى ذلك الوقت ، لأنها كانت تسيطر على السلطان ، وتتدخل فى السياسة ، وفى تصريف شؤون الدولة ، فتمكنت من التأثير عليه ، حتى ساء ظنه بنظام الملك ، وفكر فى عزله .

ثالثاً : شكوى والى مرو من قبل السلطان ملكشاه من عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك الذى كان جده قد ولاه رئاسة مرو فثار نزاع بينه وبين قودن الوالى المعين من قبل السلطان ، فلم يلبث أن استغل عثمان نفوذ جده نظام الملك ، فقبض عليه وأودعه السجن ، ثم أطلق سراحه فقصد السلطان مستغيثا شاكيا[٢] ، وكان السلطان قد أبغض نظام الملك ، وأحب القضاء على نفوذه ، ونفوذ أبنائه وأتباعه ، فكان هذا السبب الأخير بمثابة طلقة التنفيذ ، فهم السلطان بخلع وزيره نظام الملك غير أنه لم يلبث أن خشى أن يقدم على هذا الأمر فتنتشر الفوضى والاضطرابات فى جميع أنحاء الدولة نظرا لكثرة أتباع نظام الملك

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٣٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ ﻫ

ولأن جزءاً كبيراً من رجال الجيش كانوا يحبونه ويؤيدونه ، ويحمونه هو وأولاده وأتباعه ، فآثر السلطان أن يلجأ إلى التهديد بالعزل بدلا من العزل نفسه ، فلعل التهديد يرهب نظام الملك فيخفف من سيطرة أتباعه ، فاتخذ من شكوى والى مرو سبباً فى إرسال خطاب شديد اللهجة إلى نظام الملك ، وذلك فى عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وأراد أن يمعن فى إغاظة الوزير وإغضابه ، فأرسل الخطاب مع جماعة من أرباب دولته منهم شخصان من ألد أعدائه هما تاج الملك الشيرازى ومجد الملك القمى ، وقد وجه ملكشاه فى هذا الخطاب الكلام إلى وزيره قائلا : « إن كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ، فلذلك حكم ؛ وإن كنت نائبى وبحكمى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة ، وولى ولاية كبيرة ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى فعلوا كذا وكذا . . . » وأطال القول(١) .

فلما وصلت الرسالة إلى نظام الملك تميز غيظاً ، ورد عليها رداً جافاً ؛ فقال لمن حملوها : « قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ

ورأيي ؛ أما يذكر حينما قتل أبوه ، فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان — وذكر جماعة من خرج عليه — وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني ، ولا يخالفني ؛ فلما قدت الأمور إليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصي والداني ، أقبل يتجنى لي الذنوب ، ويسمع في السمايات . قولوا له عني : إن ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة ، وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك ، فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه . ثم قال لهم : قولوا للسلطان عني مهما أردتم ؛ فقد أهمني ما لحقني من توبيخه ، وفت في عضدي[1] » .

وأحيط السلطان علماً بجواب نظام الملك ، فأحفظه الجواب أكثر من ذي قبل ، ولكنه — رغم ذلك — لم يجرؤ على عزله ، فأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه في صورة لا تؤدي إلى قيام فتن وثورات ، وأخذ يدبر مؤامرة للإيقاع به ، حتى تم قتله على يد واحد من فدائيي الإسماعيلية وهو في طريقه إلى بغداد في رفقة السلطان ملكشاه ، فقد تقدم هذا الفدائي — وهو يرتدي ملابس الزهاد — نحو نظام الملك وتظاهر بأنه يريد تقديم ملتمس للوزير ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ ، البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦٣

ثم طعنه بسكين كان يخفيها فتوفى متأثراً بجراحه ، ويبدو أن هذا كان بتحريض من تاج الملك[١] ، وأن السلطان كان ملماً بأطراف المؤامرة .

* * *

موت ملكشاه :

وتوجه ملكشاه بعد مصرع نظام الملك إلى بغداد ، ثم عين تاج الملك الشيرازى فى الوزارة ، غير أن السلطان لم يلبث أن توفى بعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً[٢] — فانفرط عقد السلاجقة ، وتمزقت وحدتهم وقوتهم ، وصدق قول نظام الملك فى رده على رسالة السلطان .

وكانت وفاة ملكشاه فى ظروف غامضة ، مما نشر الشائعات حول موته ، فقيل إنه توفى مسموماً بتدبير من أتباع نظام الملك الذين كانوا يتهمون السلطان بالتآمر على قتله ، ولم يعد الناس وفاة ملكشاه حدثاً جالا بعد مصرع نظام الملك .

والواقع أن الدارس للدولة السلجوقية فى حاجة إلى أن يقف وقفة طويلة عند الدور الذى مثله نظام الملك على مسرح الدولة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ

(٢) المرجع السابق

السلجوقية من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية .

أما من الناحية السياسية ؛ فقد كان نظام الملك طوال عهد ألب آرسلان وملكشاه يمد الأستاذ الأعظم وسيد الوزراء ، فكان فى يده زمام الأمور فى دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة فى الداخل والخارج ، وحدد أهدافها ورسم الطرق التى توصل إلى هذه الأهداف ، واستطاع بحسن سياسته ، وسلامة تفكيره ، ودقة تدبيره أن يجعل الأمور منتظمة فى جميع أنحاء الدولة ، وأن يخمد الفتن التى ثارت طوال مدة وزارته ، وأن يجعل السلاجقة أكبر قوة فى العالم الإسلامى ، ويكسبهم احترام المسلمين وتقديرهم ، ويبث فى نفوس غير المسلمين رهبتهم ، فخشيهم العالم المسيحى ، ودفع قياصرة الروم الجزية لهم عن يد وهم صاغرون ، وأخذت الدول المسيحية تتجمع للقضاء عليهم ، فتوالت الحملات الصليبية بعد ذلك ، وبدأت سلسلة من الصراع المرير بين المسلمين وهؤلاء الصليبيين ، خرج المسلمون منها ظافرين فى النهاية على يد صلاح الدين .

والواقع أن نظام الملك كان بعيد النظر وهو يرسم سياسة السلاجقة الخارجية ، فقد جعل أهم أهدافهم فتح الولايات غير الإسلامية الواقعة فى شمال غربى إيران ، وفى آسية الصغرى ،

وانتزاعها من أيدى الروم فضرب بذلك أول معول فى كيان الدولة الرومانية ، ومهد لسقوطها بعد ذلك على أيدى الأتراك العثمانيين .

وقد ضمن نظام الملك آراءه فى السياسة ونظم الحكم ، كتابه المشهور الذى وضعه فى هذا الموضوع ، وسماه « سياستنامه » وهو من أشهر الكتب التى تبحث فى نظم الحكم ، وكيفية إدارة البلاد وكسب رضا المحكومين ، وقبولهم لسلطان الدولة دون تذمر أو ثورة ، والواقع أن ما تضمنه الكتاب من آراء ووصايا يصلح أساساً لفن الحكم مما جعل الكتاب يحظى بشهرة واسعة ، وينقل من الفارسية إلى لغات مختلفة[1] .

أما فى الناحية الاجتماعية فقد شجع على تعمير المدن ، وإصلاح البلاد وفعل الخير ، وشيد كثيراً من المساجد والمدارس التى عرفت باسمه ، فكانت تسمى « المدارس النظامية » ، وكانت نشأة المدارس ترتبط فى الحقيقة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية — كما سيأتى — وقد انتشرت المدارس التى أنشأها نظام الملك فى بغداد ونيسابور وطوس وهراه وإصفهان وغيرها من البلاد ، وكان من أشهرها المدرسة النظامية فى بغداد ، كما خلف كثيراً من الأبنية والآثار العظيمة فى مختلف الأمصار ، خصوصاً فى بغداد

(١) كتب السيد محمد العزاوى المدرس بوزارة التربية والتعليم رسالة عن نظام الملك نوقشت فى جامعة القاهرة فى عام ١٩٥٠ وترجم كتابه « سياستنامه » إلى العربية .

وإصفهان ، خلدت اسمه بعد وفاته ؛ وأقر الأمن والنظام فى جميع أرجاء الدولة السلجوقية ، فانتعش المجتمع السلجوقى ، واتحد أفراده وتماسكوا ، واتجهوا جميعاً إلى خدمة أهداف الدولة ، ونظروا إلى حروبها على أنها نوع من الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل نشر دينه ، وإعلاء كلمته ، فحفظ بذلك للسلاجقة وحدتهم وتكتلهم .

وأما من الناحية الثقافية ، فقد كان نظام الملك نفسه عالماً أديباً ، فشجع على نشر العلم والثقافة ، وأنشأ المدارس لخدمة هذا الغرض ، وشمل العلماء والكتاب والشعراء بكثير من رعايته وتشجيعه ، فاجتمع حوله الكثيرون منهم ، وألفوا كتباً ، وقدموها له ونظموا الأشعار فى مدحه والإشادة بفضله ، فساعد بذلك على رواج سوق العلم ، وازدهار الثقافة فى دولة السلاجقة .

والواقع أن مكانة نظام الملك وأثره فى الدولة السلجوقية قد ظهرا بوضوح بعد مصرعه ، وخلو مكانه ، فقد زلزلت هذه الدولة زلزالا شديداً وانتكست انتكاساً عنيفاً ، وبدأت صفحة جديدة من تاريخها ، فانتهى عصر التماسك والقوة ، وبدأ عهد التفكك والضعف ثم الانهيار ، وإن كان نفوذ أسرته قد بقى بعد مقتله ، بسبب حب الشعب لها ؛ والتفافه حول أفرادها ؛ فتمتع كثير من أبنائه وأحفاده بشىء من النفوذ ، ووصلوا إلى الوزارة فى أحيان كثيرة فى أثناء حكم أبناء ملكشاه ، وغيرهم من سلاطين

السلاجقة ؛ وكثيراً ما كان يكفى تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقى لغلبته ، لأن الشعب كان ينحاز إلى الجانب الذى تؤيده هذه الأسرة ، كما كان يكفى تخلى هذه الأسرة عن حاكم من السلاجقة لتخلى الشعب عنه وانهزامه ؛ كما سنرى .

* * *

أما السلطان ملكشاه ؛ فإنه — أيضاً — من أعظم سلاطين الدولة السلجوقية ، فقد وصلت الدولة فى عهده إلى أقصى قوتها وعظمتها ، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوباً ، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً ، وكان اسمه يذكر فى الخطبة وينقش على السكة فى هذه الديار الشاسعة جميعها ، كما كان أمراء الكرج والأبخاز وإمبراطور الروم ، يرسلون إليه الخراج ، ويدفعون له الجزية .

وأصبحت مدينة إصفهان فى عهده من أهم بلاد العالم — فى ذلك الوقت — وأكثرها عمراناً ، فقد قام هو ووزيره نظام الملك وكبار رجال السلاجقة وأعيان الدولة ببناء كثير من الأبنية الفخمة فيها ، لا تزال آثار بعضها شاخصة إلى الوقت الحاضر .

ومن أشهر الأعمال التى تمت فى عهده ، التقويم المعروف باسم « تقويم جلالى »[1] نسبة إليه ، وقد تم وضع هذا التقويم

(١) يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل ، حوادث سنة ٤٦٧ ﻫ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه جمعا جماعة من أعيان المنجمين ، فجعلوا النيروز =

فى مدينة إصفهان فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) بتشجيع من نظام الملك ، واشترك فى وضعه وإصلاحه الشاعر المشهور أبو الفتح عمر ابن إبراهيم الخيام النيسابورى .

* * *

وقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل ، واختفاؤهما من المسرح السياسى من أهم الأحداث التى وقعت فى تاريخ الدول السلجوقية ، فقد انتهى باختفاء السلطان ووزيره عهد القوة والاتحاد ، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام ، عهد أصبح الظفر فيه بمنصب السلطان غاية فى نفسه ، فكثر فيه النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، ولم تعد الدولة السلجوقية فيه تخضع لسلطان واحد ، بل يتنازعها أكثر من سلطان فى وقت واحد ، ويتقاسمها أمراء السلاجقة الذين لم يعد همهم نصرة الإسلام وتوسيع رقعة الدولة السلجوقية كما كان يفعل طغرل وألب آرسلان وملكشاه ، بل محاولة القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم ، فأدت كثرة القتال بينهم إلى إسقاطهم جميعاً فى النهاية ، ولذلك يعد اختفاء ملكشاه ونظام الملك بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ السلاجقة .

= أول نقطة من الحمل وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم ، وتبدأ السنة بمقتضى هذا التقويم فى ٢١ مارس من كل عام غالبا ، وهو التقويم الشمسى المستعمل فى إيران فى الوقت الحاضر .

الفصل الخامس
تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم

الزاع حول العرش :

كانت أولى المشاكل التي أطلت برأسها عقب موت ملكشاه مشكلة اختيار السلطان الذي يخلفه على العرش ، وقد برزت هذه المشكلة فى أواخر عهده - كما مر — ؛ ومات السلطان ملكشاه وقتل وزيره نظام الملك قبله بمدة وجيزة دون الوصول إلى رأى حاسم فيها .

وكان التنافس على العرش ينحصر بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده أتباع نظام الملك ، وبين أخيه الأصغر محمود ، وهو ابن تركان خاتون الزوجة المدللة ذات النفوذ ويناصرها تاج الدين الشيرازى الوزير الذى احتل مكان نظام الملك .

وهكذا انقسم السلاجقة إلى معسكرين متنازعين يجاهر كل منهما الآخر بالعداء ؛ وكانت الظروف فى صالح محمود أول الأمر ، لأن السلطان ملكشاه توفى فى بغداد مقر الخليفة العباسى الذى يرجع إلى رأيه فى تعيين السلطان ، وتطلب موافقته على توليته ،

بينما كان بركيارق إذ ذاك فى إصفهان ، فاستطاعت تركان خاتون بالاتفاق مع تاج الملك إخفاء نبأ وفاة ملكشاه حتى تم البيعة لابنها محمود ، وطلبت من الأمراء وحكام الأطراف أن يبايعوه ، كما حاولت أن تقنع الخليفة المقتدى بالله العباسى بأحقية ابنها الطفل هذا[1] ، وما زالت به حتى اعترف به سلطانا بعد وفاة أبيه ، وخطب له فى ٢٢ شوال من عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

ثم أمرت بإيداع بركيارق السجن ، فسجنه أتباعها فى إصفهان ؛ وهكذا تم لتركان خاتون ما أرادت ، وخيل إليها أنها أصبحت فى مأمن من كل مناوأة ، وفى منجى من كل عداء[2] .

ولكن أتباع نظام الملك ، ورجال المدرسة النظامية وطلابها فى إصفهان كانوا لها بالمرصاد ، فما كادوا يعلمون بما حدث حتى أعلنوها ثورة عاتية ، وهاجموا سجن إصفهان ، وأخرجوا بركيارق منه ، وأجلسوه على عرش السلطنة فى إصفهان ، وبهذا وجد سلطانان فى وقت واحد : محمود فى بغداد ، وبركيارق فى إصفهان ، وأصبح لا مفر من الاحتكاك بين المعسكرين .

وكانت تركان خاتون هى البادئة بالعدوان ؛ ولكن قواتها

---

(١) كان عمره فى ذلك الوقت أربع سنوات وبضعة أشهر

(٢) ارجع فى تفصيل ذلك إلى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ

هزمت أمام قوات بركيارق يؤيده النظامية[١] ، وقبض النظامية على الوزير تاج الملك الشيرازى وقتلوه انتقاما لمصرع نظام الملك قبل ذلك ببضعة أشهر ، وولوا على الوزارة عز الملك الحسين بن نظام الملك ، وكان مقيما بأصفهان عند حصار بركيارق لها[٢] .

وقد تحصنت تركان خاتون فى إصفهان ، فآثر بركيارق أن يترك حصارها ، وأن يتحين الفرص المناسبة للاستيلاء عليها بسهولة ، فتوجه إلى همذان .

ولكن ما لبث أن ظهر منافس آخر لبركيارق — فى عرش السلطنة — هو عمه تاج الدولة تتش الذى كان واليا على دمشق وما جاورها من بلاد الشام من قبل أخيه ملكشاه ، فلما بلغه نبأ موته ، ورأى اختلاف أولاده من بعده ، أخذ يستعد هو للمطالبة بالعرش فسار إلى حلب وبسط سلطانه عليها ، ولم تلبث أن دانت له أنطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين بالولاء ، ثم تمكن بعد مدة وجيزة من فتح الموصل وديار بكر وآذربيجان ، وبدأ يفكر فى التوجه إلى بغداد للاتصال بالخليفة العباسى ، لاعتراف به سلطانا على السلاجقة .

وأحس بركيارق بالخطر الذى يتهدده من ناحية عمه تتش ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ

وكان بركيارق إذ ذاك قد استولى على كثير من بلاد إيران منها الري وهمذان وما بينهما ، فتوجه إلى آذربيجان لدفع خطر عمه عن البلاد فلما تقارب الجيشان انضم عدد من أمراء جيش تتش إلى بركيارق فأيقن تتش أنه لا طاقة له بهم فعاد إلى الشـام ، واستقامت البلاد لبركيارق ، فى عام ٤٨٦ هـ نفسه .

غير أنه لم يلبث أن واجه فتنة أخرى قام بها خاله إسماعيل ابن ياقوتى ، وقد كان أميرا على آذربيجان ، فأرسلت إليه تركان خاتون تحرضه على قتال بركيارق وتمده بالزواج منه[١] ، فأجابها إسماعيل إلى ما طلبت ، وجمع جيشا وافر المدد من التركمان ولـكنه هزم أمام بركيارق ، وفر إسماعيل إلى إصفهان حيث أكرمت تركان خاتون وفادته ، وخطبت له ، وضربت اسمه على الدينار بعد ابنها محمود ، وكادت تتزوج به لولا غيرة الأمراء منـه ، وتدبيرهم ضده ، مما جعله يخشاهم ، ويترك إصفهان ويلجأ إلى أخته زبيدة أم بركيارق ، ولـكن أنصار بركيارق قتلوه ، فانتهت بذلك فتنته[٢] .

ثم توجه بركيارق إلى بغداد ، ومعه وزيره عز الملك الحسين ، وما زال بالخليفة المقتدى بأمر الله حتى اعترف به سلطانا على

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٦ هـ

السلاجقة ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى ١٤ من المحرم من سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ومنحه لقب ركن الدين ، غير أن الخليفة توفى فى اليوم التالى ، فخلفه ابنه المستظهر بالله الذى لم يلبث أن اعترف هو — أيضاً — ببركيارق .

وكان عمه تتش منذ عودته من إصفهان جادا فى جمع الجند ليعاود المطالبة بعرش السلطنة ، فلما علم بما تحقق لبركيارق من تأييد الخليفة العباسى هاجم حلب ، وقتل الأمراء الموالين لبركيارق ، ثم تمكن فى خلال مدة وجيزة من فتح حلب ودياربكر وآذربيجان وهمذان[١] ، ثم لاحظ أن الناس يميلون إلى أسرة نظام الملك ، ووجد فخر الملك الابن الأكبر لنظام الملك فى همذان أثناء استيلائه عليها ، ففكر فى وسيلة لكسب رضا الناس عنه فأسند الوزارة إلى فخر الملك هذا ، وبذلك قوى نفوذ تتش وأصبح أكبر خطر يهدد بركيارق ، الذى ساعده الحظ بموت زوج أبيه تركان خاتون ثم أخيه محمود وانحياز أنصاره إليه . فبايعوا بركيارق بالسلطنة ، ثم لم يلبث أن انضم إليه مؤيد الملك بن نظام الملك ، فأسند إليه الوزارة فى ذى الحجة من العام نفسه[٢] ، وكان مؤيد الملك هذا أكفأ أبناء نظام الملك ، فاستطاع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧ هـ

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٢ — ١٤٣

أن يعيد الاستقرار إلى دولة بركيارق المختلة ، وكاتب الأمراء العراقيين والخراسانيين واستمالهم ، فانضموا جميعا إلى بركيارق فعظم شأنه ، وكثر جنده ، حتى استطاع الانتصار على عمه تتش فى معركة بالقرب من الرى فى صفر من عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) انتهت بمصرع تتش[١] ، فتخلص بركيارق من شره نهائيا ، واستقامت السلطنة له ، وبذلك انتهى النزاع حول العرش بعد أن ظل سنتين وبضعة أشهر ، ولكن آثاره لم تنته ، فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم ، وأصبحوا شيعا وأحزابا ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها ، وهكذا ترك السلاجقة التطلع إلى العالم الخارجى ، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة ، وصار بأسهم بينهم شديداً ، فبدأوا يتناحرون ، وأصبح الظفر بالعرش هدفا فى ذاته ، وقلدهم وزراؤهم ، وقوادهم فتنافسوا وتناحروا للظفر بالوزارة أو القيادة ، فأخذت الدولة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين ، وأخذ نجمها يقل تلألؤا وبريقا حتى أفل فى النهاية .

* * *

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٨٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

التنازع على الوزارة :

لم تكد مشكلة الأحقية بعرش السلطنة تهدأ بعد إتمام الغلبة لبركيارق حتى أطلت مشكلة الأحقية بالوزارة برأسها ، وأخذت تهدد دولة السلاجقة بانقسامات ومنازعات جديدة ؛ فلم يكد بركيارق يفرغ من القتال حتى بدأ التنافس بين فخر الملك وأخيه مؤيد المؤيد على كرسى الوزارة ، فقد كان فخر الملك الابن الأكبر لنظام الملك ، وكان يحاول كثيراً أن يحتل مكانة أبيه فلم يزل يسعى للوصول إلى هدفه ، ويتصل بالسلطان حتى تقرب منه ، فعزل مؤيد الملك وأسند الوزارة إلى أخيه فخر الملك فى عام ٤٨٨ هـ نفسه(١) .

وكانت سلطة فخر الملك اسمية ، بينما كانت السلطة الفعلية فى يد مجد الملك الذى كان وزيرا لديوان الاستيفاء كما كان وزيرا لزبيدة خاتون أم السلطان ، فاستطاع أن يبسط نفوذه على كل مرافق الدولة وأن يتصرف فى جميع مهامها ، واستحالت وزارة فخر الملك إلى دمية فى يد مجد الملك ، وصارت جسما لا ينبض بالحيـاة .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٣ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

وبدأت المنافسة على كرسى الوزارة بين مجـد الملك وفخر الملك ، أما مؤيد الملك فإنه لم يفكر فى مناوأة أخيه فخر الملك ، ولم يحاول أن يستعيد الوزارة من جديد ، بل فـكر فى التآمر ضد السلطان نفسه ، فأخذ يتصل بأعدائه ومنافسيه حتى استقر به المطاف عند محمد بن ملـكشاه أخى بركيارق الذى كان واليا على إقليم آذربيجان من قبل أخيه ، فقربه محمد واتخذه وزيراً ليضمن تأييد أسرة نظام الملك له ثم بدأ يناوئ أخاه كما سيأتى .

وكان فخر الملك هو ومجـد الملك مع السلطان فى بلخ ، (٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م) فوجد السلطان أن الفرصة قد واتت لعزل فخر الملك بصفة نهائية ، فخلعه وعين مجد الملك القمى وزيرا بصفة رسمية[(١)] ، واضطر فخر الملك إلى الانزواء فى نيسابور ، ولـكن انزواءه لم يطل فقد عينه سنجر — أخو بركيارق وحاكم خراسان من قبله — وزيرا له ، فظل فى الوزارة إلى أن قتله فدائيو الإسماعيلية فى العاشر من المحرم من عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦م) .

وهكذا انتصرت زبيدة خاتون ووزيرها مجد الملك القمى وأخذ مجد الملك يظهر فوق المسرح السياسى بعد أن كان يعمل من وراء حجاب ، وبدأت المؤامرات تدبر ضد السلطان ووزيره تحت إشراف مؤيد الملك بن نظام الملك ؛ وكان إقدام بركيارق

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥

على عزل فخر الملك يعنى تخليه نهائيا عن أسرة نظام الملك التى كانت تتمتع بحب الجزء الأعظم من رعايا السلاجقة ، ومن أمراء الجيش وكبار رجال الدولة ، فبدأ الناس يتخلون عن بركيارق بعد أن كانوا يحمونه ، واشتعلت نيران الثورة فى جهات مختلفة من أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

قيام الفتن :

ووجدت دعايات مؤيد الملك ضد بركيارق ووزيره صدى فى النفوس ، فاستجاب لها الأمير « أنر » وشق عصا الطاعة فى إصفهان وجمع جيشا قويا توجه به إلى الرى ، وأرسل إلى السلطان فى خراسان يطلب منه تسليم مجد الملك ، فتوجه لقتاله ، ولكن « أنر » قتل على أيدى فدائيي الإسماعيلية[٣] الذين كانوا قد نشطوا فى إصفهان وما جاورها ، وصاروا خطرا يهدد الدولة السلجوقية وكبار رجالها .

وقد استراح بركيارق ومجد الملك من فتنة أنر ليواجهوا فتنة أقوى وأخطر أطلت برأسها من آذربيجان ، فإن مؤيد الملك — المحرك الأصلى لهذه الفتن جميعها — لما فشلت فتنة أنر أسرع بالتوجه إلى آذربيجان ، حيث كان محمد بن ملكشاه أخو بركيارق

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ

والياً على أرّان وگنجه ، وكان هو وسنجر من أم واحدة ، وأخذ مؤيد الملك يثير محمداً هذا ضد أخيه بركيارق ووزيره مجد الملك رغبة فى الانتقام منهما ، فاستمع محمد إليه وعينه وزيراً له وبدأ يستعد لقتال أخيه .

وكان أول عمل قام به محمد هو قطع خطبة بركيارق من بلاده والخطبة لنفسه بالسلطنة ، ثم تحرك فى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) على رأس جيش كبير قاصداً همذان والرى يصحبه وزيره مؤيد الملك ، وجمع بركيارق جيشاً وفير العدد وتوجه من الرى إلى زنجان لقمع هذه الفتنة ، غير أن الفتنة لم تلبث أن انتشرت بين جنوده ، فقد كان أغلبهم يميل إلى أسرة نظام الملك ، ويكره مجد الملك القمى ، ولم يلبث جنود بركيارق أن طالبوه بقتل وزيره ، ولكنه لم يذعن لأمرهم فلم يجد الجنود بدا من الهجوم على خيمة مجد الملك ، حيث قتلوه ومزقوه إربا[1] ، وحلت الهزيمة ببركيارق فولى هارباً إلى إصفهان ، غير أن الناس سدوا الطريق فى وجهه فلم يسمحوا له بالتوجه إلى إصفهان ، فولى وجهه شطر خوزستان ، وسار محمد حتى دخل مدينة الرى وكانت زبيدة خاتون أم بركيارق قد تخلفت فيها فقبض عليها

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ — ١٤٦

مؤيد الملك وأمر بقتلها[١] ثم توجه إلى همذان ، وأعلن نفسه سلطاناً على الدولة السلجوقية .

وأحس الخليفة العباسى بقوة محمد ، وغلبة نفوذه فاعترف به سلطاناً على السلاجقة ، فخطب له ، ولقب بغياث الدنيا والدين .

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، معترف بهما من الخليفة العباسى ، وكان هذا كله بسبب الاختلاف على كرسى الوزارة ، وما تتمتع به أسرة نظام الملك من تأثير فى الشعب والجيش ، وطبيعى أن يؤدى هذا إلى القضاء على وحدة السلاجقة ، وذهاب ريحهم ، وانقسام الناس إلى فرق مختلفة وانشغال السلاجقة عن أهدافهم السامية إلى قتال بعضهم بعضاً .

وقد طال النزاع بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر وتداولوا النصر والهزيمة ، أما الخليفة العباسى فكان مسلوب السلطة مما أدى إلى تناقضه فى تصرفاته ، فهو يؤيد كل من تصل يده إلى بغداد ويدعو له على المنابر[٢] .

وقد أدت هذه الحروب المتطاولة إلى انتشار الفساد والاضطراب فى الدولة ؛ فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعاً فيها ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ

(٢) ارجع فى شرح هذا إلى المرجع السابق ، فى حوادث سنة ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ هـ .

محكوماً عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم .

وفى عام ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م) سئم بركيارق كثرة الحروب ورأى ضعف السلاجقة وتفككهم فخاطب أخاه فى الصلح[١] ، واتفق الطرفان على أن يسرى تقسيم النفوذ ، فتخضع المناطق الشمالية لمحمد ، ويسيطر بركيارق على الأقاليم الجنوبية ، وأن يحمل كل منهما لقب السلطنة ، بينما تظل خراسان وما جاورها تحت حكم سنجر ؛ واستمر هذا الاتفاق قائماً حتى توفى بركيارق فى الثانى من شهر ربيع الثانى من عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ، وكان قد عين قبيل وفاته ابنه ملكشاه — الذى كان طفلا دون الخامسة — ولياً لعهده ، وعين الأمير إياز أتابكا عليه[٢] .

* * *

وهكذا توفى بركيارق وهو شاب فى الخامسة والعشرين من من عمره بعد حكم اثنتى عشرة سنة وبضعة أشهر قضى أغلبها فى حروب متواصلة تبادل فيها النصر والهزيمة فى سبيل الاحتفاظ بعرش السلطنة .

والشيء الجدير بالملاحظة أن بركيارق ترك الدولة السلجوقية بعد أن تجزأت ، وصار كل جزء منها يتبع والياً يكاد يكون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ

مستقلا فكانت الأجزاء الشرقية من الدولة تخضع لحكم سنجر بينما تخضع الأجزاء الشمالية لسيطرة أخيه محمد ، وكانت بلاد الشام فى قبضة أبناء تتش وكانت آسية الصغرى تحت حكم أبناء سليمان ابن قتلمش ، وكان كل حاكم يسيطر سيطرة مطلقة على الأقاليم الخاضعة لنفوذه ، فتقسمت بذلك الدولة السلجوقية العظيمة ، فلم تعد ترى تلك الصورة الرائعة من الاتحاد والتماسك بين أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف التى كانت واضحة المعالم فى عهود طغرل وألب آرسلان وملكشاه ، ولم تتضح هذه الصورة إلا فى خلال جزء من عصر سنجر كما سيأتى .

والحقيقة أن الدولة السلجوقية أخذت منذ عهد بركيارق تتجه نحو الضعف والتفكك والانهيار بعد أن كانت أعظم قوة فى العالم الإسلامى ، مما سوف نتبينه من حديثنا عن خلفاء بركيارق حتى زوال هذه الدولة .

* * *

فتنة الإسماعيلية :

لم يحتدم النزاع كثيراً حول العرش بعد وفاة بركيارق ، فقد حمل إياز السلطان ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد وحصل من الخليفة العباسى على التفويض له بالسلطنة ، ولكن لم يستطع الاحتفاظ له بها طويلا فإن محمداً أسرع إلى بغداد ، وضم ابن

أخيه إليه ، ومالأ « إياز » فى أول الأمر وبذلك أصبح محمد سلطاناً دون منازع ، ولم يعترض شقيقه سنجر ، ثم انقلب محمد على إياز فتخلص منه بالقتل (١) .

ولكن الدولة السلجوقية لم تلبث أن ابتليت بفتنة عارمة أشعل الإسماعيلية نيرانها ، فقد استفادوا مما أصاب دولة السلاجقة من تفكك وتنازع ، وانشغال بالحروب الداخلية فيما بينهم ، فزادوا من نشاطهم ، ووسعوا منطقة نفوذهم ، وأخذوا ينشرون دعوتهم حتى وصلت إلى إصفهان إحدى عواصم الدولة السلجوقية ، كما انتهزوا فرصة الحروب بين محمد وبركيارق ، فحاولوا السيطرة على مناطق جديدة وبلغت جرأتهم درجة جعلتهم يخطفون الناس بحيل مختلفة ، ويحملونهم إلى منازل غير معروفة حيث يسجنونهم أو يقتلونهم .

وقد استطاع أحد قواد الإسماعيلية ، وكان يدعى أحمد بن عبد الملك بن عطاش أن يستولى على قلعة « شاهدژ » بالقرب من إصفهان فى عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٤ م) ، وكانت « شاهدژ » إحدى القلاع الحصينة التى بناها السلطان ملكشاه ، مما جعل سيطرة الإسماعيلية عليها من الأحداث الخطيرة التى تهدد الدولة السلجوقية ، فقد جمع أحمد بن عبد الملك هذا الأسلحة والأمتعة

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٨ هـ

والغلمان ، وتحصن داخل القلعة ، ثم بنى بجوار المدينة أيضاً داراً للدعوة ، وأخذ يدعو الناس لاتباع المذهب الإسماعيلى ، فاستجاب لدعوته عدد كبير .

وقد أمعن الإسماعيلية فى قتل مخالفيهم ووكلوا إلى رجل منهم يدعى علوى المدنى مهمة جلاد المخالفين ، فكان يقوم بخطفهم وإعدامهم فى منزل أعده لهذا الغرض بالقرب من إصفهان[١] حتى تنبه الناس إليه ، وعرفوا المنزل الذى خصصه لذلك ، فقبضوا عليه وأحرقوه هو وزوجته .

فلما اعتلى محمد عرش السلاجقة وجد أن قوة الإسماعيلية قد بلغت الذروة ، ووصلت إلى حد الخطورة ، وأيقن أن القضاء عليهم ينبغى أن يكون أهم عمل يقوم به ، فأمر بمحاصرة القلعة فى عام ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ؛ كما أمر بقتل وزيره سعد الملك الآبى لما أحس بأنه متواطئ مع الإسماعيلية ، يتصل بهم فى الخفاء ، وأسند الوزارة إلى أحد أبناء نظام الملك وكان يدعى ضياء الملك أحمد ، ويلقب بنظام الملك الثانى ؛ وعكف السلاجقة على حصار القلعة حتى سلم أحمد بن عبد الملك فى النهاية فى العام نفسه ، فأمر

---

(١) الراوندى : راحة الصدور : ص ١٥٥ — ١٥٧

محمد بقتله هو وأبنائه ، وبتخريب قلعة شاهدژ ، ثم أخذ يتعقب الإسماعيلية[١] .

وقد عرف السلطان محمد السلجوقى بغيرته الدينية ، وجهاده فى سبيل إعلاء كلمة السنة ، ولذلك جد فى القضاء على الإسماعيلية ، وحاول الحد من نفوذهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وفكر فى الاستيلاء على قلعتهم الحصينة ألموت ، والقضاء على الحسن بن الصباح نفسه ، فأرسل فى المحرم من عام ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) ولكن الجيش الذى أرسله بقيادة وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى هذه القلعة عجز عن الاستيلاء عليها .

واشتد غضب الإسماعيلية فدبروا مؤامرة لاغتيال الوزير ، فضربوه بالسكاكين فى شهر شعبان من العام نفسه ، بينما كان فى طريقه إلى المسجد ، فجرح فى رقبته جرحاً بليغاً ، وبقى مريضاً مدة ثم برأ[٢] .

وعظم خطر الإسماعيلية بعد عجز الجيش السلجوقى عن الاستيلاء على ألموت ، فأخذوا يغيرون على المناطق المجاورة ، ويكثرون من السلب والنهب والقتل ، وأسر الرجال وسبى النساء فاضطر السلطان محمد إلى ندب الأمير أنوشتكين شيركير صاحب

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ١٥٨ — ١٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠ هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

آبه وساوه وما جاورها ، فسار أنوشتكين لقتالهم فى عام ٥٠٥ هـ (١١١١ م) وتمكن من الاستيلاء على كثير من قلاعهم[١] ثم توجه إلى قلعة ألموت ، وعكف على حصارها ، وكان السلطان يواليه بالمدد من الميرة والذخائر والرجال وقد شدد الحصار على الإسماعيلية حتى ضاق الأمر بهم وعدمت عندهم الأقوات ، وكاد الجيش السلجوقى يبلغ غايته ، ويصل إلى هدفه لولا موت السلطان محمد ، فإنه جعل الإسماعيلية يأملون فى الفرج ، وانتهاء الحصار ، كما أضعف عزائم الجند فمالوا إلى الرحيل ، واضطر أنوشتگين إلى الجلاء فى النهاية ، وترك مخلفات كثيرة غنمها الإسماعيلية[٢] .

والواقع أن السلطان محمدا بذل جهداً مشكوراً فى الفل من شوكة الإسماعيلية والحد من سلطانهم ووفق إلى حد كبير فى تصفية كثير من قلاعهم ، وإخماد ما اشتعل من فتنتهم ، والقضاء على موجة الإرهاب التى ارتفعت فى أثناء تنازع السلاجقة وتطاحنهم للظفر بالعرش ، غير أن وفاة السلطان محمد وعودة التطاحن بين أفراد البيت السلجوقى حول تقسيم مناطق النفوذ جعلا الاسماعيلية

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١١٧

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٢ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ

يستعيدون قوتهم ، ويواصلون نشاطهم ، فلم تخمد فتنتهم نهائياً ، بل عادت تطل برأسها بين آونة وأخرى .

الحروب الصليبية :

ولم يقتصر الأمر على فتنة الإسماعيلية بل ابتلى السلاجقة بعدو آخر أخذ يرابط على حدودهم الغربية منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ألا وهو الصليبيون ، فقد أخذوا يغيرون على بلاد الشام وفلسطين فى أثناء عهد بركيارق ، فى وقت كان السلاجقة فيه منقسمين على أنفسهم ، يتقاتلون فيما بينهم ، للظفر بعرش السلطنة ، فشغلتهم أهواؤهم الشخصية عن التنبه إلى الخطر الخارجى مما يسر للصليبيين النصر فى حروبهم الأولى .

وكان سلاجقة الشام لا يقلون انقساماً وتنازعاً عن غيرهم من السلاجقة فى إيران والعراق ، فلم تكن لهم زعامة موحدة ، بعد مقتل « تتش » ، وذلك بسبب التنافس الذى ثار بين ابنيه رضوان ودقاق ، والتحاسد الذى أصاب قواده ، فأخذ كل واحد منهم يعمل فى سبيل أغراضه الخاصة . وقد اتخذ رضوان (٤٨٨ — ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣ م) مدينة حلب عاصمة له ؛ بينما اختار أخوه دقاق (٤٨٨ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٥ — ١١٠٤ م) دمشق ؛

ودارت رحى الحروب بين الأخوين منذ عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءاً كبيراً من عهديهما[١] .

وقد يسرت هذه الحروب الداخلية السبيل أمام الصليبيين فهاجموا ديار المسلمين لانتزاع الأراضى المقدسة .

وإذا نظرنا إلى الحروب الصليبية فى وضعها الصحيح وجدناها فصلا متوسطاً بين فصول تلك القصة الطويلة التى تصف التفاعل بين الشرق والغرب مبتدئة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغابرة ومنتهية بالتوسع الاستعمارى الأوروبى فى عصرنا الأخير .

وكان الباعث المباشر لهذه الحروب الاستنفار الذى أرسله أمبراطور الروم الكسيوس كومنينوس — فى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م — إلى البابا أربانوس الثانى عندما هاجم السلاجقة أملاك الروم فى آسيا ، واكتسحوها حتى بحر « مرمرة » ، وهددوا القسطنطينية نفسها ، ولعل البابا رأى فى ذلك الاستنجاد فرصة لإرجاع الكنيسة اليونانية إلى حظيرة روما ، فألقى البابا أربانوس خطبة فى كليرمونت — من أعمال فرنسا الجنوبية الشرقية — استحث المؤمنين فيها على سلوك الطريق إلى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدى المسلمين ، فتنادى الفرنجة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث عام ٤٩٠ هـ

بالحرب ، واستجاب إلى دعوة البابا إلى السلاح نحو مائة وخمسين ألف رجل أكثرهم من الفرنج والنورمنديين ، وقسم منهم من صعاليك الناس ؛ وتوافدوا إلى القسطنطينية ، فبدأت بذلك الحملة الصليبية الأولى ، وسميت صليبية إشارة إلى الصليب الذى حمله أعضاؤها علامة على صدورهم .

والواقع أن حمل شعار الصليب عند جمهور الناس فى فرنسا واللورين وإيطاليا وصقلية فى ذلك الوقت وخروجهم إلى الأرض المقدسة لم يكن تضحية من قبلهم بل كان تفريجاً لكربتهم نظراً لحالة البؤس والأزمة الاقتصادية ، التى كانوا يعانونها .

وقد سلكت الحملة الصليبية الأولى — بعد احتشاد رجالها فى القسطنطينية — طريقها عبر آسية الصغرى ؛ وكانت خاضعة إذ ذاك لقلج آرسلان سلطان سلاجقة الروم ، فاصطدم الصليبيون برجاله ، ثم حاصروا نيقية فسقطت فى أيديهم فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م)(١) ، ثم اشتبكوا مع المسلمين فى معركة فاصلة فى إسكى شهر ، حيث انتصروا على قوات قلج ، فاسترد الروم بهذا الظفر الجزء الغربى من شبه جزيرة الأناضول .

واجتاز جيش الصليبيين — بعد ذلك — جبال طورس ، واتجه جزء منه بقيادة بلدوين شرقاً ، فاستولى على مدينة الرها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، فى حوادث عام ٤٩١ هـ

فى عام ٤٩٢ ﻫ (١٠٩٨ م) وهى مدينة يسكنها الأرمن ، وأسس بلدوين فى هذه المنطقة أول مستعمرة لاتينية ، وجلس أميراً على عرشها(١) .

واحتل جزء آخر من جيش الصليبيين طرسوس ، بينما تابع الجيش الرئيسى سيره جنوباً حتى وصل إلى أنطاكية عاصمة سورية الشمالية ، وتمكن من انتزاعها من أيدى السلاجقة فى عام ٥٩١ ﻫ (١٠٩٧ م)(٢) ، فأسس بوهمند فيها الإمارة الثانية ، وبقيت هذه المدينة فى أيدى الصليبيين نحو مائة وخمس وسبعين سنة ، وحاول كربوغا أمير الموصل أن ينقذ المدينة ، ولكنه فشل وخسر عدداً كبيراً من جنده(٣) .

وكانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ وطئتها أقدام السلاحقة فى عام ٤٦٣ ﻫ (١٠٧٠ م) ، وقد استطاع السلاجقة انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم فى الشام — فى عهد تتش بن ألب آرسلان — وبسطوا سيطرتهم على حلب والرها والموصل — كما مر — ؛ غير أن الفاطميين تمكنوا بفضل أسطولهم القوى

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧٥٣ — ٧٥٤

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ ﻫ ؛ أبو الفداء : ج ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٢٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ ﻫ ، أبو الفداء ، ج ٢ ص ٢٢١

من لاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالا فى عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) ، كما عادوا إلى القدس فى عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، وظلوا فيها إلى أن سقطت فى أيدى الصليبيين (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) ؛ وأدى هذا إلى اضطراب الحالة فى بلاد الشام ، فقد كثرت المنازعات بين السلاجقة والفاطميين حول كثير من أجزائها ، ولم تكن للسلاجقة زعامة موحدة بعد مصرع تتش ، فزادت الحالة اضطراباً — كما ذكرنا — ، وكان السلاجقة على مذهب السنة ، بينما كان الفاطميون على مذهب الشيعة ، فسعى كل من الطرفين إلى الإيقاع بالطرف الآخر ، فلم يقفوا جميعاً صفاً واحداً لصد الخطر الصليبى الداهم الذى أخذ يهدد نفوذ كل منهم فى بلاد الشام تهديداً مباشراً حينذاك .

فقد توجه جزء من الجيش الصليبي بقيادة ريموند ده تولوز جنوباً ، واحتل معرة النعمان ، ثم أخلاها رجاله فى عام ٥٩١ هـ (١٠٩٧ م) بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أهلها وجعلوها طعمة للنيران[١] . ثم سار ريموند غرباً ، فاحتل حصن الأكراد[٢]

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ؛ أبو الفداء ، ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) ابن خلدون : ج ٥ ، ص ١٨٧ ، وهى قلعة الحصن اليوم ، وسميته حصن الأكراد لأنها فى الأصل قلعة بناها أمير حمص سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) وجعلها مقرا الحامية كردية ، ارجع إلى حتى وجرجى وجبور ؛ تاريخ العرب ، ج ٣ ، حاشية ص ٧٥٦

وهو نقطة عسكرية خطيرة تتحكم فى الممر الواقع بين سهول العاصى والبحر الأبيض المتوسط ، وحاصر عرقة — على الحافة الغربية من لبنان الشمالى[١] — ونزل انطرسوس على الساحل دون مقاومة ، غير أنه تنازل عن هذه الأملاك ورافق الجيش الزاحف إلى بيت المقدس ، التى كانت الهدف المقصود .

واتجه الفرنجة جنوباً ؛ فنزلوا الرملة واستولوا عليها ، فصارت أول منطقة لاتينية فى سورية الجنوبيـة — أى فلسطين[٢] — ، ثم سار الصليبيون إلى بيت المقدس فى عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) وكانت حامية المدينة من الجنود المصريين ، فتمكنوا من فتحها[٣] ، ثم أحرزوا نصراً ثانياً على الجيش المصرى عند عسقلان[٤] ، فساعد هذا النصر على تثبيت أقدامهم فى القدس ، إلا أن عسقلان بقيت مقراً للأسطول المصرى ، ومركز حامية اعتمد عليها الوزير المصرى الملك الأفضل فى الوقيعة بالعدو[٥] . وهكذا نشأت ولاية لاتينية ثالثة أصبحت أعظم الولايات مرتبة ، وعهد بالأمر فيها إلى جودفرى شقيق بلدوين ؛

---

(١) حتى وجرجى وجبور ؛ تاريخ العرب ، ج ٣ ؛ ص ٧٥٦

(٢) ابن القلانسى : ص ١٣٦

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ

(٤) المرجع السابق

(٥) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ وما بعدها

وشعر كثير من الصليبيين والحجاج — بعد هذا كله — أنهم قد أوفوا نذووهم ، فأبحروا عائدين إلى أوطانهم[١] .

وكان أول عمل وجه جودفرى إليه اهتمامه هو إخضاع مدن الساحل حتى تيسر له الاتصال بأوروبا ، فاستعان بالسفن الإيطالية التي كانت تنقل الحجاج ، وقد أدرك أصحابها أن امتلاك تلك المدن الساحلية يفتح أسواقاً جديدة وموانئ حرة لبضائعهم ، واستطاعت السفن الإيطالية أن تبسط نفوذ الصليبيين على يافا وأرسوف وقيسارية وعكا وحيفا[٢] فى عام ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) ، وكان الأسطول المصرى الفاطمى هو الأسطول الوحيد الذى يستطيع حماية هذه المدن الساحلية ، ولكنه لم يؤد خدمة تستحق الذكر .

كما توغل الصليبيون داخل البلاد ، فاستولوا على بيسان وأخضعوا نابلس[٣] ، وبذلك سيطر الصليبيون على سواحل الشام وكثير من بلاد الشرق الإسلامى ، وأصبحوا أعظم خطر يهدد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

غير أن السلاجقة كانوا مشغولين بحروبهم الداخلية والتطاحن للظفر بالعرش عن التنبه إلى هذا الخطر العظيم أو إلى تقدير

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ

(٣) ابن القلانسى ، ص ١٣٨

خطورته تقديراً صحيحاً ، كما كان الخليفة العباسى فى بغداد فى درجة من الضعف لا تمكنه من المساهمة فى صد هذا الخطر ، فلم يبد كل من السلاجقة والعباسيين اهتماماً بالحملة الصليبية ، وتركوا الحروب الصليبية يتفاقم خطرها فى سورية وفلسطين دون القيام بدور إيجابى ذى بال ؛ ولما فتح الصليبيون بيت المقدس فى عام ٤٩٢ هـ أقبل وفد من الشام مستغيثاً بأولى الأمر مستنفراً فبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة(١)، وأحال الخليفة المستظهر رجال الوفد إلى السلطان بركيارق — الذى بدأت تنحل به سلطنة السلاجقة ، وانتهت المفاوضات عند هذا الحد .

وفى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) أحدق الفرنج بطرابلس فسار وفد من أهلها إلى بغداد على رأسه زعيم المدينة المحاصرة فانقضى أمر استغاثتهم ولم يظفروا بطائل(٢)، وبعد ثلاث سنوات أقلعت من مصر مراكب فيها أمتعة كثيرة لتجار من حلب فوقع عليها الفرنج وأخذوها بما فيها ، فسار جماعة من حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج ، واجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، ودخلوا جامع السلطان وهو حاضر ، وكسروا المنبر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠١ هـ

وكسروا شباك المقصورة وبطلت الصلاة ، فأرسل الخليفة المستظهر حينئذ إلى السلطان محمد السلجوقى يكل إليه الاهتمام بهذا الفتق ، فتقدم إلى من معه من الأمراء بالتجهز للجهاد ، والسير إلى قتال الفرنج ، فساروا وهم عدد قليل فلم يصنعوا شيئاً[1] ؛ وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين الفرنج والمسلمين وأمير المؤمنين وسلطانه السلجوقى لا يكادان يفعلان شيئاً ، حتى حاول السلطان محمد أن يرد كيد الصليبيين بعد أن عظم خطرهم ، فأرسل — فى أواخر عام ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) — جيشاً لقتالهم غير أن هذا الجيش لم يوفق فى أداء مهمته ، لأن خلافاً حدث بين أمراء الجزيرة وأمراء الشام ، فتسبب فى تمزيق صفوف المسلمين ، وأدى إلى هزيمتهم فى عام ٥٠٩ هـ (١١١٥ م)[2] ، فازداد الصليبيون قوة وخطراً .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٥٠٤ هـ ، ٥٠٥ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنتى ٥٠٨ هـ ، ٥٠٩ هـ

الفصل السادس

انقسام دولة السلاجقة

بدأت الدولة السلجوقية تتفكك منذ وفاة السلطان ملكشاه ، فكان عصر بركيارق — كما رأينا — مسرحا للفتن والحروب الداخلية طمعا فى عرش السلطنة من ناحية ، وفى منصب الوزارة من ناحية أخرى ، مما أضعف السلاجقة وشجع أعداءهم على منازلتهم ، وتربص الدوائر بهم .

وكان الإسماعيلية والصليبيون ألد أعداء السلاجقة فى ذلك الوقت ، أما الإسماعيلية فكانوا يكمنون داخل الدولة ويسيطرون على كثير من القلاع الحصينة ، وكان زعيمهم الحسن بن الصباح لا يزال يحتفظ بقوته ويزاول نشاطه .

وأما الصليبيون فكانوا يرابطون على حدود الدولة الغربية ويبسطون نفوذهم على كثير من أجزاء بلاد الشام وفلسطين المهمة .

وقد ورث السلطان محمد تركة مثقلة بالأعباء ، فحاول أن يقضى على الفتن المختلفة التى تهدد دولة السلاجقة ، فوفق فى الحد من نفوذ الإسماعيلية ، غير أنه فشل فى الحد من خطر الصليبيين .

النزاع حول العرش :

لم يكد السلطان محمد يتوفى فى عام ٥١١ (١١١٧ م) حتى بدأت المنازعات حول عرش السلطنة تطل برأسها من جديد ، فأخذ السلاجقة ينقسمون على أنفسهم ، فى وقت كان أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب ؛ فقد أمر السلطان محمد قبيل وفاته بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود ، فأسندت إليه عقب وفاة والده ، وكان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره ، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسى على ذلك ، فذكر اسم السلطان محمود فى الخطبة فى بغداد[١] ، ولكن عمه سنجر والى خراسان وما وراء النهر استنكف أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وظهرت على الدولة علامات الانقسام .

وبدا واضحا — فى ذلك الوقت — أن دولة السلاجقة الرئيسية فى إيران والعراق قد صارت قسمين متميزين : سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ويمثلهم السلطان سنجر ، وسلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق ويمثلهم السلطان محمود . وأخذ كل من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ

المعسكرين يكيد للآخر ، فاشتعلت الحرب بينهما وكان النصر حليف سنجر(١) ، فاعترف له الخليفة العباسي بالسلطنة .

ولم يلبث سنجر أن عطف على ابن أخيه « محمود » فصالحه ، وعينه وليا لعهده وكتب بذلك إلى سائر الولايات التي تخضع لحكمه — مثل خراسان وغزنه وما وراء النهر — ، كما أحاط الخليفة العباسي علماً بذلك ، وأعاد عليه جميع ما أخذه من البلاد ما عدا مدينة الري التي اتخذها قاعدة له ، لمراقبة محمود خشية أن تحدثه نفسه بالخروج عليه مرة أخرى(٢) .

وانتهى بذلك التنازع على عرش السلاجقة ، ولكن دولتهم كانت — في الحقيقة — ممزقة الأوصال ، فلم تكن أجزاء الدولة تخضع لحكم سلطان واحد كما كانت الحال في عهد طغرل الأول وألب آرسلان وملكشاه ، بل كان كل جزء من أجزاء دولتهم في إيران والعراق وآسية الصغرى والشام يكاد يكون مستقلا ، يصرف شئونه حكامه دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحكام ، وكانت المنازعات الداخلية تشغلهم عن أي هدف آخر .

وكان كل من سنجر ومحمود يحمل لقب السلطان ، واستمر هذا الوضع بعد وفاة السلطان محمود ، فأصبح هناك سلطان

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٣ هـ

(٢) المرجع السابق .

لسلاجقة العراق ، رغم وجود سنجر السلطان الأعظم في خراسان ، وأخذ تاريخ السلاجقة يتطور تطورا جديداً أدى إلى سقوطهم فى النهاية كما سيأتى .

* * *

سلاجقة خراسان :

كان سنجر والياً على خراسان وما وراء النهر من قبل أخويه بركيارق ومحمد ، وكان يسمى ملك المشرق ، وقد ظل فى هـذه المنطقة بعد توليه عرش السلطنة ، فأطلق على السلاجقة الذين يمثلهم سنجر اسم « سلاجقة خراسان » تميزا لهم عن « سلاجقة العراق » ، كما سموا « السلاجقة العظام » لأن « سلاجقة العراق » كانوا يعترفون لسنجر بالزعامة على السلاجقة كما اعترف له الخليفة العباسى بهذه المنزلة أيضاً ، فعُـدّ سنجر آخر سلاطين السلاجقة العظام الذين اعترف لهم جميع حكام السـلاجقة فى عصره بالزعامة والسلطنة .

وقد ستطاع سنجر — قبل توليه عرش السلطنة — أن يوطد نفوذه ، وأن يقوم بفتوحات بسطت هذا النفوذ على بلاد أخرى ، فتمكن من فتح ترمذ وطخارستان فى عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وضمهما إلى حوزته(١) ، كما استطاع أن يبسط نفوذه على إقليم

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

ما وراء النهر فى عام ٤٩٥ هـ (١١٠١ م)[١] ، وبلغت قوته حدا مكنه من هزيمة آرسلانشاه الغزنوى ، وفتح غزنه فى عام ٥١١ هـ (١١١٦ م) .

وقد ازدادت قوته بعد توليه عرش السلطنة ، وتجلت فى انتصاره على ابن أخيه « محمود » ، فبسط انتصاره نفوذه على أكثر أجزاء إيران والعراق ، وصارت له الكلمة العليا فى أقاليم ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان وإصفهان وهمذان والرى وآذربيجان ، وأرمينية وأرانية وبغداد والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين ، وصارت تضرب له السكة فى هذه الأقاليم وبلادها ، وتطأ بساطه ملوكها .

غير أن الحروب لم تنقطع فى عصر سنجر ، فقد كانت الأقاليم المجاورة له تغلى بالأحداث ؛ ولعل من أبرز هذه الأحداث الجديرة بالتسجيل فى شرق إيران ظهور دولتين فتيتين ، هما الدولة القره خطائية ، والدولة الخوارزمية ، وهما دولتان مشهورتان لعبت كل منهما دورا مهما موجها فى تاريخ السلاجقة بصفة خاصة ، وفى توجيه سير الأحداث بصفة عامة ، فى أثناء القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

* * *

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

الدولة القره خطائية :

كانت القبائل القره خطائية مجموعة من القبائل التركية التى سكنت شمال شرق إيران فى عهد السلاجقة ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تثبت أقدامها فى هذه المنطقة ، وأن تؤسس دولة فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) متخذة مدينة « بلاساغون » عاصمة لها ، وعرفت هذه الدولة باسم « الدولة القره خطائية » نسبة إلى هـذه القبائل ، وكان يطلق على كل ملك من ملوكها لقب « گورخان »[١] .

وقد ازدادت قوة هؤلاء الخطائيين حتى استطاعوا بسط نفوذهم على المناطق المجاورة لهم ، فتمكنوا من إخضاع القبائل التركية التى كانت تعرف باسم « قيرقيز » ، ثم هاجموا « كاشغر » و «ختن» ؛ واستطاع والى « كاشغر» أن يوقف سيلهم الجارف .

غير أنهم عاودوا الإغارة على البلاد الإسلامية فى عام ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، فأمعنوا فيها سلباً ونهباً وقتلاً وتدميراً ، وجاسوا خـلال الديار ، فأصيب الناس بذعر شـديد ، واستنجدوا بالسلطان سنجر .

ولم يجد سنجر بدا من التحرك لقتالهم ، فأعد جيشاً كبير

(١) الراوندى : راحة الصدور ، حواشى ، ص ١٧٢ ؛ إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٧٦

العدد وافر العدد حتى يتمكن من القضاء على جميع القبائل التركية المتمردة التى شكا عماله فى تلك النواحى من كثرة اعتداءاتها ، فتوجه فى عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، إلى إقليم ما وراء النهر[١] ، وأحست طوائف الأتراك بشدة بأسه ، فأرسلت طائفة « القيرلق » وطوائف الأتراك القره خطائية إليه تعرض اعتذارها ، وتتعهد بالطاعة والولاء والخضوع ، غير أنه رفض عروضها ، وصمم على استئصال شأفتها ، فاضطر أفراد هذه الطوائف إلى منازلة سنجر والاستماتة فى قتاله ، والتحموا معه فى معركة عنيفة عند قطوان بالقرب من سمرقند فى عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ، وقد أبلى « القيرلق » و « القره خطائيون » فى هذه المعركة بلاء حسناً ، فتمكنوا من هزيمة سنجر هزيمة نكراء ، ووقعت زوجته أسيرة فى أيديهم ، وولى هو الأدبار[٢] .

وكانت موقعة « قطوان » حداً فاصلاً بين عهدين من سلطنة سنجر ؛ عهد القوة وغلبة النفوذ ، وعهد الضعف والانهيار ، كما كانت ذات آثار خطيرة فى تاريخ السلاجقة ، فقد قوى أمر الخطائيين ، فأخذوا — منذ ذلك الوقت — يبسطون نفوذهم

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ

على إقليم ما وراء النهر وكاشغر ، كما استولوا على سمرقند وبخارى ، وتعهد الخانيون — من آل آفراسياب — بدفع الخراج لهم ، فصاروا بذلك خطراً جسيما يهدد سنجر وسلاجقة المشرق ؛ واستمرت دولتهم حتى عام ٦٠٩ هـ (١٢٠٢ م) ، حينما استطاع علاء الدين محمد الخوارزمى القضاء عليها .

كما جرأت هزيمة سنجر حكام الدولة الخوارزمية ، فتمردوا عليه ، فبدأ نجم السلاجقة فى المشرق يأفل تدريجيا ، وكان لهذا كله صدى بعيد فى تاريخ السلاجقة بصفة عامة .

* * *

الدولة الخوارزمية :

ينتسب ملوك الدولة الخوارزمية إلى عبد تركى كان يسمى « أنوشتگين » ؛ وكان « أنوشتگين » هذا ضمن جماعة من العبيد الذين اشتراهم أحد أمراء السلاجقة فى غرجستان ؛ وقد استطاع أن يظهر من الكفاءة واللياقة ما فتح أمامه باب الترقى فى عهد السلطان ملكشاه ، فعينه والياً على خوارزم ، فظل يتمتع بهذا المنصب حتى توفى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، فخلفه ابنه قطب الدين محمد الذى أطلق على نفسه لقب

« خوارزمشاه » أى « ملك خوارزم »[1]، وأسس دولة عرفت فى التاريخ باسم الدولة الخوارزمية ، فأخذت هذه الدولة تظهر على مسرح التاريخ تدريجياً ، ولو أن ملوكها تظاهروا فى البداية بالطاعة والولاء للسلاجقة ، فعدوا أنفسهم معينين من قبلهم .

وقد أسند سنجر ولاية خوارزم إلى علاء الدين اتسز بعد وفاة أبيه قطب الدين محمد ، فظل اتسز على وفاق مع سنجر . فلم يفكر فى محاربته أو الخروج عليه ، فاطمأن سنجر إليه ، حتى إنه صحبه معه فى حملته ضد فخر الدين بهرامشاه الغزنوى فى عام ٥٢٩ هـ[2] (١١٣٤ م) .

واطمأن اتسز إلى قوته واستقرار نفوذه ، فحاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالاً تاماً عن السلاجقة ، فثار على سنجر فى عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) بعد عودته من غزنه ، وأخذ يهاجم الهضاب التى تقع فى أسفل جيحون ، فتمكن من انتزاع هذه المنطقة من قبضة السلاجقة ، وضمها إلى منطقة نفوذه ، فبدأ بذلك مرحلة جديدة من النزاع بين السلاجقة والخوارزميين .

ولم يجد سنجر بدا من السير لقتال اتسز ، فعبأ الجيوش

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

وتوجه لقتاله فى المحرم من عام ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، فسار من بلخ إلى خوارزم ، واشتبك الطرفان بالقرب من « هزاراسپ » .

وقد انتصر سنجر فى هذه المعركة انتصاراً مؤزراً ، وتمكن من القضاء على عدد كبير من جند اتسز ، فولى اتسز الأدبار بعد هذه الهزيمة النكراء ، ووقع ابنه أسيراً ، فى يد سنجر ، ثم أسند ولاية خوارزم ، إلى ابن أخيه هو غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقى[1] ، ولكن اتسز تمكن من العودة إلى خوارزم بعد مغادرة سنجر لخراسان ، واستطاع التغلب على سليمان هذا ، وطرده بمساعدة الأهالى أنفسهم ، غير أنه خشى فى الوقت نفسه أن يسير سنجر لقتاله من جديد ، فحاول أن يسترضيه بالحسنى ، فأرسل إليه فى ذى الحجة من عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، يتعهد بإطاعة أمره ، وعدم الخروج عليه مرة أخرى ، وتمكن بهذا من كسب رضا السلطان ، ولو أنه كان فى الحقيقة مستقلا عن السلاجقة استقلالا تاماً .

وقد شجعت الهزيمة التى منى بها سنجر فى قطوان فى عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) اتسز على معاودة العصيان منتهزا فرصة ضعف سنجر واضمحلال قوته ، فأخذ يغير على المناطق

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٣ هـ .

الشرقية - الواقعة بين كاشغر وبخارى — وتمكن من انتزاعها من يد سنجر ، وحاول فى الوقت نفسه أن يؤلب الأقطار الإسلامية ضد سنجر بعد أن كانت مطيعة له ، فتجددت بذلك الحروب بين الطرفين ؛ فقطع اتسز خطبة السلطان سنجر وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه هو ، وسير جيشه إلى أعمال بيهق ، فانتشر الجيش بخراسان ينهب ويرتكب أعمالا شنيعة وتمكن اتسز من الاستيلاء على هذه البلاد وغيرها من خراسان[١].

وأخذ سنجر يعد العدة للانتقام من اتسز ، ثم توجه لقتاله فى عام ٥٣٨ هـ[٢] (١١٤٣ م) ، فتحصن اتسز فى مدينة خوارزم ، فحاصره سنجر ، وخشى اتسز على ملكه فأخذ يقدم الاعتذار ، ويظهر الطاعة والانقياد ، ويلتمس العفو من السلطان حتى تم الصلح بين الطرفين ، فعاد سنجر إلى مرو .

وهكذا استمر سنجر يحارب ويستعد للحروب ، فكان لا يفرغ من موقعة حتى يستعد لموقعة جديدة ، كما واصل اتسز تمرده ، وكانت كفة سنجر هى الراجحة غالباً ، غير أن اتسز كان داهية ، فلا يكاد يشعر برجحان كفة سنجر حتى يعتذر له ويلتمس

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ ؛ الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٧٤ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٨٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٨ هـ

العفو ، ويظهر الطاعة والولاء ، وكان سنجر ساذجاً ، فكان يخدع بهذا التظاهر ، فيرضى بالصلح .

وقد وقعت الحرب الأخيرة بين أتسز وسنجر فى عام ٥٤٣هـ[١] (١١٤٨ م) وانتهت بإقرار اتسز على خوارزم ، فرسخت أركان الدولة الخوارزمية ، وأخذت تظهر بقوة على المسرح السياسى ، بينما أخذت قوة سنجر تنهار ، وتسير إلى الهاوية بخطى سريعة .

* * *

سلاجقة العراق :

ولم تقتصر الاضطرابات على الأجزاء الشرقية من دولة السلاجقة بل شملت الأجزاء الأخرى ، فانتشرت فى العراق وآذربيجان والشام ، مما جعل معسكر سلاجقة العراق مضطرباً أشد الاضطراب ؛ وكان السلطان سنجر رغم اشتغاله بقتال الخطائيين والخوارزميين يضطر أحياناً إلى التدخل لقمع الفتن ، وإقرار الأوضاع .

وكان كل فرد من أفراد البيت السلجوقى يعد نفسه مستقلا فى الجزء الذى يخضع لنفوذه ، ويحاول أن يوسع منطقة هذا النفوذ ، ويسعى للوصول إلى السلطنة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مما أدى إلى كثرة الحروب وتعدد ميادينها .

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ

فلم يكد السلطان محمود يفرغ من قتال عمه السلطان سنجر حتى رفع أخوه الملك مسعود حاكم الموصل وآذربيجان علم الثورة ضده — فى ربيع الأول من عام ٥١٤ هـ[1] (١١٢٠ م) — ، ووقعت الحرب بينهما ، فهزم مسعود ورجاله .

وأدى اضطراب الحالة فى آذربيجان وما جاورها إلى تجرؤ حكام جورجيا ، فأغاروا على بلاد المسلمين فى عام ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وتصدى طغرل أخو محمود لقتالهم ، ولكنه هزم ، فأمعن الكرج فى المسلمين قتلا ، وأخذوا يغيرون على البلاد حتى بلغوا مدينة تفليس فحاصروها حصاراً شديداً استمر إلى عام ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) حتى اضطر أهلها إلى التسليم .

ولجأ الناس مستصرخين إلى السلطان محمود فى عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، وكان — حينذاك — يقيم فى همذان ، فسار إلى آذربيجان ، وأقام فى مدينة تبريز ، وأخذ يستعد لقتال الكرج الذين كان المسلمون يخشون بأسهم خشية شديدة ، ثم توجه لقتالهم ، وصمد لهم ، وانضم إليه أهل « شروان » ، بينما وقع خلاف شديد بين الكرج ، فاختلت صفوفهم ، وانتهى الأمر بانتصار السلطان محمود ، ورحيل الكرج عن بلاد المسلمين فى عام

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤ هـ .

٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ، وأقام السلطان محمود مدة فى شروان ، ثم رحل إلى همذان بعد أن اطمأن إلى استقرار الحالة(١) .

وهكذا كانت الحالة فى شرق العالم الإسلامى سيئة مملوءة بالفتن والاضطرابات ، كما كان غربى العالم الإسلامى يموج بالأحداث الجسام ؛ فكان أمراء السلاجقة فى سورية وما بين النهرين فى نزاع دائم ، وكان كل منهم يحاول الاتصال بالسلطان السلجوقى بغية الظفر بنفوذ أوسع .

وكانت فلسطين وبعض أجزاء سورية الساحلية تحت حكم الفاطميين ، وكانت أوضاعها فى غاية من الفوضى والاضطراب نظراً لاختلال إدارتها ؛ أما مصر فكانت تشهد فساد حكم الفاطميين لأن الخليفة الفاطمى كان فى حالة من الضعف جعلته دمية فى أيدى الوزراء وقواد الجيش الذين كانوا مشغولين بتدبير المؤامرات ضد بعضهم البعض أملا فى الظفر بالنفوذ والسلطان .

ولم يكن الخليفة العباسى فى بغداد بأحسن حالا من الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، مما جعل العالم الإسلامى — فى كثير من أجزائه — عرضة لأطماع الطامعين من المسلمين وغير المسلمين ، ومكن الصليبيين — كما ذكرنا — من شق طريقهم إلى بيت المقدس ، وتثبيت أقدامهم فى كثير من أجزاء الشام وآسية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٥١٤ و ٥١٧ هـ .

الصغرى ؛ وقد أغراهم تفرق المسلمين وضعفهم وانقسام الدولة السلجوقية ، واشتداد الفتن بين المسلمين أنفسهم بمحاولة توسيع رقعة الأراضى التى تحت أيديهم ، فأضافوا إليها مدينة صور فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٣ م) وكانت من أمنع حصون البلاد ، فازدادوا قوة على قوة ، وصاروا شوكة فى جنب المسلمين .

ومما زاد الطين بلة ، انقطاع الأمطار فى العام نفسه فى العراق والموصل وبلاد الجزيرة والشام وديار بكر وكثير من بلاد المسلمين ، مما أدى إلى قلة الأقوات ، وغلاء الأسعار فى جميع البلاد ، واستمر سوء الحالة الاقتصادية إلى عام ٥١٩ هـ (١١٢٤ م) .

وقد شجع ضعف السلاجقة وتفرقهم الإسماعيلية فعظم أمرهم بالشام وقويت شوكتهم ، فملكوا قلعة « بانياس » فى ذى القعدة من عام ٥٢٠ هـ (١١٢٥ م) وتمكنوا من قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقى صاحب الموصل .

وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد بل إن حدة الخلاف بين المسلمين وصلت إلى درجة حدوث خلاف بين الخليفة العباسى فى بغداد ، وسلاجقة العراق ، فثار خلاف بين المسترشد بالله العباسى والسلطان محمود السلجوقى ، وتوجه السلطان محمود لحصار بغداد ،

---

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٨ و ٥٢٠ هـ .

وحدثت مناوشات كثيرة بين الطرفين ، ثم انتهى الأمر بدخوله بغداد بعد أن تم الصلح بينه وبين الخليفة ، فأقام فيها إلى شهر ربيع الثانى من عام ٥٢١ هـ (١١٢٦ م) ثم رحل إلى همذان[١] .

وكان الوزراء أيضاً فى نزاع دائم ؛ فكانوا يدبرون المؤامرات لبعضهم البعض ، وكثيراً ما كانوا يحرضون الأمراء والسلاطين ضد بعضهم البعض ، مما زاد الفتن اشتعالا ، والحالة اضطراباً .

النزاع حول عرش سلاجقة العراق :

ولم تلبث مشكلة اعتلاء عرش السلاجقة فى العراق أن أطلت برأسها من جديد عقب وفاة السلطان محمود فى شوال من عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) فتنازع ابنه داود مع عمه مسعود ، وبدأت الحرب من جديد بين أفراد البيت السلجوقى ، واقتتل الطرفان ثم اصطلحا ، غير أن منافساً آخر لم يلبث أن ظهر فى الأفق وهو سلجوقشاه عم داود ، فتقاتل مسعود مع أخيه سلجوقشاه ثم اصطلحا على أساس أن يصبح مسعود سلطانا على سلاجقة العراق ويصير سلجوقشاه ولياً لعهده ، وكان ذلك فى عام ٥٢٦ هـ (١١٣١م)[٢] ، وأقر الخليفة العباسى المسترشد بالله هذا الوضع .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٢٠ هـ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ ؛ البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥٢ .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ .

ولكن هذا الصلح لم يضع حداً للنزاع بين الأمراء السلاجقة ، فانتشرت الفتن فى إيران والعراق .

وتدخل السلطان سنجر ليضع حداً للنزاع فاشتبك فى حرب مع جيش مسعود بالقرب من « دينور » فى عام ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) انتهت بهزيمة مسعود وفراره ، ثم عين سنجر طغرل بن محمد — أخا مسعود — سلطاناً على سلاجقة العراق[١] ، فخطب له فى جميع البلاد وسمى السلطان طغرل الثانى .

ولم يرق داود بن محمود السلجوقى ما حدث من تغيير ، فرفع راية العصيان ، ثم توجه إلى همذان ، فخرج إليه عمه طغرل ، فانهزم داود ولجأ إلى بغداد[٢] .

أما مسعود ، فإنه توجه بعد ذلك إلى همذان — أيضاً — لمحاربة أخيه طغرل عام ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) وانتصر عليه ، واستولى على هذه المدينة ، فظفر بعرش سلاجقة العراق[٣] .

وتكرر القتال بين مسعود وأخيه طغرل وتبادلا النصر والهزيمة[٤] ؛ وقد بذل مسعود جهوداً مضنية حتى استطاع سلطنته على العراق وغربى إيران وحكمها دون منازع .

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ

النزاع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة :

ولكن الفتنة لم تلبث أن أطلت برأسها من جديد بين مسعود والخليفة العباسى المسترشد بالله نفسه ، وكان سبب الفتنة أن الخليفة لم يظهر حماسة كبيرة للسير مع مسعود لقتال خصومه ، ثم خوف الأمراء من مسعود بعد استيلائه على همذان — عقب وفاة أخيه طغرل (٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م) — والتجائهم إلى الخليفة العباسى مما شجع الخليفة المسترشد بالله على الاستعداد لقتال مسعود ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة فى بغداد ، وصمم على السير لقتاله ، وأخذ الأمراء يحسنون له الرحيل ، ويسهلون عليه الأمر ، ويهونون له من شأن مسعود حتى خرج — فى عام ٥٢٩ هـ /١١٣٤ م — لقتاله ولكنه هزم ووقع أسيراً هو وعدد كبير من أصحابه ، وغنم جيش مسعود غنائم طائلة ، وأنزل الخليفة فى خيمة ، بينما ألقى أكابر رجاله فى السجن(١) ، وأرسل والياً من قبله إلى بغداد ، فثار الناس ، وانتشرت الفتنة ، وكثرت المناوشات بين أتباع مسعود ، والعامة فى بغداد ، وانتهز الإسماعيلية فرصة وجود الخليفة فى خيمة دون حراسة قوية ،

---

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٦ – ١٧٧ ، الراوندى راحة الصدور ، ص ٢٢٧ .

فهجموا عليه وقتلوه ومثلوا به أبشع تمثيل ، فبويع ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وأيده حاكم بغداد من قبل مسعود(١) .

ومهما يكن من شيء ؛ فقد أصبح مسعود بعد مقتل الخليفة المسترشد قوياً مرهوب الجانب ، فحاول التخلص من أعدائه وأخذ يبسط نفوذه على سائر أقاليم العراق وما جاوره ، وتوجه مسعود إلى بغداد غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد بينه وبين الخليفة العباسى الراشد بالله ، وسواء أكان سبب النزاع مطالبة مسعود للراشد بالله بضريبة كبيرة(٢) ، أم رغبة الراشد بالله فى الأخير بثأر أبيه(٣) ، فإن الحرب قامت فعلا بين الطرفين فى عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، واجتمع كثير من الأمراء وحكام الأقاليم حول الخليفة العباسى ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة ، واستقر رأيه على إحلال « داود » محله ، فسار مسعود إلى بغداد وحاصرها نيفا وخمسين يوماً ، ودب اليأس إلى قلوب أنصار الخليفة فتفرقوا ، واضطر الخليفة نفسه إلى الفرار إلى الموصل ،

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ ، البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ٢ ص ١٧٤ — ١٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٣٠ هـ

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ؛ صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٠٨ .

فدخل مسعود بغداد وعزل الخليفة وعين مكانه عمه المقتفى لأمر الله ، وحدد له مخصصاته ، ووضع يده على زمام الأمور فى دار الخلافة .

وتجدد النزاع بين الراشد ومسعود أكثر من مرة ، حتى اغتال الإسماعيلية الراشد كما اغتالوا أباه من قبل وصارت لمسعود الكلمة العليا فى العراق .

غير أن الحروب والفتن لم تهدأ بل ظلت تواصل اشتعالها ، دون انقطاع بين مسعود والخارجين عليه ، مما جعل الدولة مسرحاً للفتن والمنازعات[1] .

فقضى السلطان مسعود أكثر حكمه فى إخماد الفتن[2] ، حتى تخلص من المتمردين على حكمه ، فخلا الجو له ، وظل قوياً مرهوب الجانب فى المناطق الخاضعة لحكم سلاجقة العراق إلى أن توفى فى أول رجب من عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، فضعفت بموته دولة سلاجقة العراق ، وعادت مسرحاً للفتن والحروب الداخلية من جديد ، وصار السلاطين ألعوبة فى أيدى الأمراء وقواد الجيش وأتابكة آذربيجان ، كما سيأتى .

* * *

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٣١ ، البندارى : مختصر تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٨

(٢) ارجع إلى : ابن الأثير ، الكامل حوادث سنة ٥٤٠ و٥٤٢ هـ

وهكذا نلاحظ أن دولة السلاجقة أصبحت — منذ أواخر القرن الخامس الهجرى — مسرحاً للحروب الداخلية ، كما كانت جميع الظروف المحيطة بدولتهم سيئة للغاية ، وأصبحت القرائن جميعها توحى بأن دولة كهذه لا يمكن أن تحتفظ بقوتها ، أو أن تصمد أمام أعدائها ، وتستطيع المحافظة على حدودها .

وقد كان أخطر معول هدّ فى كيان دولة السلاجقة ومزق أوصالها تنازع النفوذ ، وكثرة الحروب بين أفراد البيت السلجوقى نفسه ، وكانت الأيام تزيد نيران الفتنة اشتعالا بينهم ، فشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم الذين كانوا يحيطون بدولتهم من كل جانب حتى إن ابن العبرى ليصفهم بقوله : « فكأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء ، وجبلت جبلتهم على الإغفال والإغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاغترار بهم غرر ، وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون[1] » :

فكان طبيعياً أن تأخذ أجزاء الدولة السلجوقية فى الانهيار تدريجياً ، وكانت أجزاؤها الشرقية أسرعها إلى السقوط كما سنرى .

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٣

الفصل السابع

انتهاء دولة سلاجقة المشرق

لم تكن الظروف المحيطة بسلاجقة المشرق مواتية ، فقد كان السلطان سنجر شيخا هرما يحمل على عاتقيه عبء السنين ، وكانت قوته تنحسر تدريجيا عن كثير من الأقاليم المجاورة له بعد الحروب الكثيرة التى حفل بها عصره ؛ والتى اضطر إلى خوضها دفاعا عن حدود دولته وصونا لنفوذه وهيبة السلاجقة من التبدد والضياع .

حقيقة إن سنجر وفق فى أكثر الحروب التى خاض غمارها ، ولكن كثرة هذه الحروب ، وتعدد ميادينها قد هد قوته ، وفت من عضده ، وفل شوكته ، كما أن هزيمته من الأتراك الخطائيين ، وضياع إقليم ما وراء النهر من يده ، كانت ضربة قوية وجهت إلى الدولة السلجوقية وحربة نافذة فى ظهرها .

وكان من نتيجة ذلك كله أن دولة السلاجقة فقدت السيطرة على أطرافها ، فكثرت الدول والإمارات المستقلة حولها ؛ وأهم الدول التى أحاطت بسلاجقة المشرق فى ذلك الوقت واشتبك السلاجقة فى حروب معها هى : الدولة الخوارزمية والدولة

الخطائية — وقد عرضنا مراحل النزاع بينهما وبين السلاجقة — والدولة الغورية .

وكانت الدولة الغورية تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروزكوه بالقرب من غزنه ، ثم امتد نفوذها إلى هراة ، وحاصر ملكها علاء الدين حسين الغورى مدينة بلخ ، فتوجه سنجر للقائه ودارت بين الفريقين معركة عنيفة انتهت بانتصار سنجر وأسر علاء الدين ، غير أن سنجر أطلق سراحه ورده إلى بلاده ، ولم تلبث قوة علاء الدين أن ازدادت فاستولى على غزنه بعد هرب بهرامشاه الغزنوى ، وعين عليها أخاه سيف الدين ، ولكن أهل غزنه ثاروا على سيف الدين وقبضوا عليه وصلبوه واستدعوا بهرامشاه مرة أخرى ، ويبدو أن هذا حدث فى عام ٥٤٧ ھ[١] (١١٥٢ م) ، وقد انتقم علاء الدين لأخيه وفتح غزنه ونكل بأهلها فى عام ٥٥٠ ھ (١١٥٥ م) ؛ وأخذت الدولة الغورية الفتية تظهر على المسرح السياسى وتشترك فى توجيه الأحداث فى إيران والهند منذ ذلك الوقت .

فتنة الغز :

وكانت الفتنة الأخيرة التى قضت على سلاجقة المشرق فتنة الغز التى اشتعلت نيرانها فى مستهل عام ٥٤٨ ھ (١١٥٣ م) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧ ھ

وكان الغز من بين القبائل التركية التى تسكن فى إقليم ما وراء النهر ، وكانوا مسلمين ، فلما استولى الخطائيون على إقليم ما وراء النهر هاجرت طوائف الغز ، وسكنت بالقرب من بلخ ، فأراد الأمير قماج حاكم بلخ إبعادهم ، فأرضوه بالمال والهدايا ، فعفا عنهم ، وأقاموا فى تلك النواحى على حالة حسنة ، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ولكن قماج عاود مطالبتهم بالانتقال عن بلده ، فامتنعوا وانضم بعضهم إلى بعض ، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج إليهم ، فحاولوا أن يسترضوه بالمال ، ويستعطفوه ولكنه رفض وأصر على أن يتركوا بلاده ، فاجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ، فنهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا ، واسترقوا النساء والأطفال ، وعملوا كل عظيمة ، وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس ، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو وبها السلطان سنجر ، فأعلمه الحال ، فراسلهم سنجر يتهددهم ، وأمرهم بمفارقة بلاده ، فاعتذروا ، وبذلوا بذلا كثيراً ليكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم فلم يجبهم إلى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد ، فاجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس ، وسار إليهم على رأس هذا الجيش الكبير فقاتل الغز ببسالة منقطعة النظير ، وتمكنوا من إنزال هزيمة نكراء بجيش السلطان الجرار ، وأمعن الغز فى جنود السلاجقة قتلا وأسراً ، حتى صار القتلى كالتلال ، وقتل

قماج ، وأسر السلطان سنجر ومعه جماعة من الأمراء فقتل الغز الأمراء ؛ وأبقوا سنجر أسيراً ؛ واستولوا على البلاد فأكثروا فيها الفساد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع به أحد ؛ فقد خربوا مرو ونيسابور ؛ وانسابوا فى البلاد المختلفة ، وأمعنوا فى السلب والنهب والقتل ، وجاسوا خلال الديار يفسدون ويدمرون حتى خربوا كل بقعة نزلوا بها ، وقد وصف ابن الأثير ما فعلوه بنيسابور فى قوله : « فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً وجعلوها قاعاً صفصفاً وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها ، وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها » .

ولما وصل أمراء السلاجقة إلى نيسابور أحضروا سليمانشاه ابن السلطان محمود ونصبوه سلطاناً ؛ فاجتمعوا عليه ، وخطبوا له بالسلطنة ، وسار جماعة من العسكر السلطانى إلى طائفة كثيرة من الغز ، فأوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيراً وانهزم الباقون ، فلما اجتمع الجند حول سليمانشاه وساروا إلى مرو يطلبون الغز ، برز الغز إليهم ، فانهزم جند خراسان وولوا الأدبار وقصدوا نيسابور فتبعهم الغز ، فمروا بطوس وهى معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها ، وخربوا مساجدها ومساكن أهلها ، وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين ، وساروا منها إلى نيسابور فوصلوا إليها فى شوال سنة تسع وأربعين ، ولم يجدوا دونها مانعاً

ولا مدافعاً ، فنهبوها نهباً ذريعاً ، وقتلوا أهلها فأكثروا ، وسبوا نساءها وأطفالها وأخذوا أموالها ، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ، وانتشر الغز فى مدن خراسان الأخرى ، وفعلوا بها ما لم يفعله الكفار مع المسلمين ، أما السلطان سليمانشاه فقد ضعف وكان قبيح السيرة سيئ التدبير وكان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك قد توفى فى شوال سنة ثمان وأربعين فضعف أمره ، واستوزر بعده ابنه نظام الملك أبا على الحسن بن طاهر وانحل أمر دولته بالكلية ففارق خراسان فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة وعاد إلى جرجان ، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان ابن أخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان ، واستدعوه فملكوه أمورهم وانقادوا له فى شوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة وساروا معه إلى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر فى أكثرها للغز(١) .

وكان للسلطان سنجر مملوك اسمه أى أبه ولقبه المؤيد ، فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه وأطاعه كثير من الأمراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وأبيورد وشهرستان والدمغان وأزاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقاً كثيراً وأحسن السيرة وعدل فى الرعية واستمال الناس ووفر الخراج على أهله ، وبالغ فى مراعاة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ

أرباب البيوت ، فاستقرت البلاد ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه .

أما الخان محمود بن محمد فإنه لما يئس من قتال الغز سار إلى نيسابور فوجد أن المؤيد قد غلب عليها فراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة (١١٥٥ م) هدنة على دخل[١] .

وأما السلطان سنجر فإنه ظل أسيراً فى أيدى الغز ثلاث سنوات وبضعة أشهر ثم تمكن من الهرب من الأسر فى رمضان من عام ٥٥١ هـ[٢] (١١٥٦ م) حتى وصل إلى دار ملكه « مرو » فاجتمع الناس حوله ، وجلس على عرشه مرة أخرى ، غير أنه كان قد أصبح شيخاً محطماً فلم يقو على تحمل صدمة ما رآه فى دياره من مظاهر الدمار فمرض ومات كمداً وحزناً ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .

والواقع أن فتنة الغز كانت الضربة القاضية التى أنهت دولة السلاجقة فى المشرق بصفة فعلية ، وكان موت سنجر خاتمة لعهد سلاطين السلاجقة العظام ، فقد استطاع سنجر فى الجزء الأكبر من مدة حكمه أن يسيطر على جميع أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف فامتد نفوذه من حدود الهند والصين إلى سواحل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٥١ هـ راحة الصدور ، ص ١٦٨ - ١٨٤ ، قويخى

البحر الأبيض المتوسط وخشيه حكام خوارزم والغور وغزنه وما وراء النهر وسلاطين العراق فى صورة لم تتيسر لغيره ، وانتصر فى أكثر حروبه فلم يهزم إلا على أيدى الخطائيين والغز ، فكان عصره إحياء وامتداداً لعصور طغرل الأول وألب آرسلان وملكشاه حينما كانت الدولة السلجوقية جميعها تدين بالولاء لسلطان واحد ولذلك يسمى هؤلاء جميعها بالسلاجقة العظام ، ويعد سنجر آخرهم .

كما أن عصر سنجر من العصور المهمة فى تاريخ الأدب الفارسى فقد رعى سنجر الشعراء والكتاب ، وإن المدح الذى قيل فى سنجر — وحفظته لنا الكتب — ليدل على مبلغ رعايته للشعراء وإثابته لهم ، وتشجيعه إياهم ، كما أن الكتب الكثيرة التى قدمت له ، وألفت تحمل اسمه ، لتدل هى أيضاً على مدى تشجيعه للعلماء والمؤلفين .

ومن أهم الشعراء الذين توفروا على مدح سنجر معزى النيسابورى ، وأنورى الأبيوردى فقد مدح هذان الشاعران العظيمان سنجر بمدائح خالدة ؛ هذا فضلا عن شعراء آخرين كثيرين مثل أديب صابر وعبد الواسع الجبلى وسيد أشرف حسن الغزنوى وسنائى الغزنوى ممن قالوا قصائد كثيرة فى مدح سنجر .

والواقع أن دولة السلاجقة أخذت فى الانهيار بعد فتنة

الغز وموت سنجر ، فلم يلبث حكام خوارزم أن استولوا على جميع ممتلكات السلاجقة فى خراسان فسقطت بذلك دولة سلاجقة المشرق أو دولة السلاجقة العظام ، ولم تقم لهم قائمة فى تلك النواحى بعد ذلك .

أما سلاجقة العراق فإنهم أخذوا — أيضاً — فى الضعف والتدهور وظلوا يسرعون إلى الانهيار بخطى واسعة حتى سقطت دولتهم فى عام ٥٩٠ هـ على أيدى حكام الدولة الخوارزمية مما سنتبينه فيما يلى .

الفصل الثامن

ضعف سلاجقة العراق

نفوذ الأتابكة :

كان لأمراء الجيش والأتابكة نفوذ كبير فى دولة السلاجقة عامة وسلاجقة العراق خاصة ، وكان هذا النفوذ يظهر بين الحين والحين فى تحريض أفراد البيت السلجوقى بعضهم ضد البعض الآخر ، وفى بث روح الغدر وعدم الثقة ، غير أن الأمراء كانوا حتى موت السلطان مسعود يستترون وراء السلاطين ، فلم يكد مسعود يتوفى حتى ظهر هؤلاء الأمراء والأتابكة على المسرح ، وبرزت شخصياتهم وأسماؤهم وأخذوا يقومون بالأدوار الرئيسية ، وأصبحوا هم أصحاب النفوذ والسلطان ، وصار سلاطين السلاجقة أدوات فى أيديهم ، تأتمر بأوامرهم ، وتنفذ رغباتهم ، دون أن يكون لهم نفوذ ، أو شخصية واضحة مميزة .

وكان من أكثر الأمراء نفوذاً بعد وفاة مسعود خاص بك ابن بلنكرى وكان السلطان مسعود قد عهد بولاية العهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود ، فلما توفى خطب له الأمير خاص

بك ، ورتب الأمور وقررها بين يديه ، وأذعن له جميع العسكر بالطاعة[1] والولاء ، وأصبحت جميع مقاليد الأمور فى يد خاص بك بينما انصرف ملكشاه إلى اللهو والشراب ، فقبض عليه خاص بك وأرسل إلى أخيه محمد سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (١١٥٣ م) وهو بخوزستان يستدعيه ، فسار محمد إليه ، فلما وصل أجلسه ، على عرش السلطنة ، وخطب له وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ، غير أن السلطان محمداً توجس خيفة منه ، فدبر مؤامره لقتله ، وتمكن ملكشاه من الهرب إلى خوزستان[2] .

وقد أدى عمل محمد هذا إلى توجس سائر الأمراء خيفة منه ، وتآمرهم عليه والثورة ضده ، ومحاولتهم عزله عن عرش السلطنة فى همذان .

كما انتهز الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله فرصة اختفاء مسعود — ذى الشخصية القوية ، والكلمة العليا — عن مسرح السلاجقة فحاول أن يتنفس الصعداء ، وأن يستعيد استقلاله وحريته المسلوبة فرفض ذكر اسم محمد فى الخطبة فى بغداد فكان هذا بداية لمنازعات انتهت إلى قيام حرب بين الطرفين فى عام ٥٥١ هـ

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٤٧ هـ .

(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٢٨

(١١٥٦ م) ، وحاول الخليفة العباسى فى تلك الأثناء أن يستميل إليه بعض أفراد البيت السلجوقى فسمح لسليمانشاه بن محمد عم السلطان محمد بدخول بغداد وأخذ عليه العهد والميثاق بأن يلزم طاعة الخليفة فلا يتعرض للعراق بحال ، وخطب له ببغداد ، وخلع عليه خلع السلطنة ، وسير معه ثلاثة آلاف فارس ، فتوجه سليمانشاه إلى بلاد الجبل لقتال ابن أخيه السلطان محمد ، واستمال إليه ابن أخيه ملكشاه أخى السلطان محمد الذى كان يسيطر على خوزستان ، فأرسل إليه يدعوه للانضمام إليه ، وعينه ولياً لعهده ، فقدم إليه ملكشاه فى ألفى فارس ، وانضم إليهما ايلدكز أتابك آذربيجان فأصبحوا جمعاً كبيراً ، فلما سمع السلطان محمد خبرهم ، سار إليهم ، ووقعت الحرب بين الطرفين ، وقد انتهت بانتصار محمد ، وتشتت شمل سليمانشاه وصحبه ، وأراد سليمانشاه الرجوع إلى بغداد عن طريق شهرزور غير أنه وقع أسيراً ، ثم حمل إلى الموصل وسجن فى قلعة بها .

ثم أرسل السلطان محمد إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق ، فامتنع الخليفة عن إجابته إلى ذلك ، فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووعده قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بإرسال العساكر إليه نجدة له على حصر بغداد ، فقدم العراق ، واضطرب الناس ببغداد وأرسل

الخليفة يجمع العساكر ، وجرت بين الطرفين عدة حروب دون أن يصل أحدهما إلى نتيجة حاسمة ، ثم عاودا القتال واشتدت الحرب بينهما ، واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع الموارد عنهم وعكف محمد على حصار بغداد غير أن الأنباء وصلت إليه بأن أخاه ملكشاه قد تحالف مع ايلدگز حاكم بلاد أران بآذربيجان ، وأن ايلدگز جاء ومعه آرسلان بن طغرل بن محمد — وهو ابن زوجته — وأنهم جميعاً قد دخلوا همذان واستولوا عليها ، فاضطر محمد إلى رفع الحصار عن بغداد ، والسير إلى همذان لمحاربتهم وإخماد الفتنة التي كانت تهدد عرشه تهديداً مباشراً واسترد السلطان نفوذه في همذان ولكن الموت ما يلبث أن عاجله (٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م) .

أما المقتفي لأمر الله فقد استقر نفوذه بعد رفع الحصار عن بغداد وزوال الخطر عنه ، فكان هذا نصراً للخلافة العباسية ، لأن المقتفي لأمر الله أصبح بذلك أول من حكم مستقلا — عن سيطرة الأتراك — منذ عهد المنتصر(١) .

فلما مات محمد اختلف الأمراء فيمن يخلفه على عرش سلاجقة العراق ، وانقسموا إلى ثلاثة أحزاب ؛ حزب يريد تولية أخيه

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٦٣ ، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥٥ هـ

ملكشاه ، وحزب يرغب فى تولية عمه سليمانشاه وكان أكثر عددا ، وحزب يميل إلى تولية آرسلان بن طغرل .

أما ملكشاه فإنه سار من خوزستان وتوجه إلى إصفهان فدخلها ، ثم أرسل إلى الجند فى همذان يدعوهم إلى طاعته فلم يجيبوه إلى طلبه لأن أكثرهم كان يريد سليمانشاه وركز ملكشاه سلطانه فى إصفهان ، وكانت الخطبة تقرأ فى بغداد باسم سليمانشاه ، ولما كثر جند ملكشاه أرسل إلى بغداد يطلب أن تقطع خطبة عمه سليمانشاه ، وأن تقرأ الخطبة باسمه وإلا قصدها ، غير أن أعداء ملكشاه نجحوا فى تدبير مؤامرة ضده ، وتخلصوا منه بدس السم له ، فمات فى عام ٥٥٥ (١١٦٠ م) ، وقرئت الخطبة فى إصفهان باسم سليمانشاه ، واستقر حكمه فى أكثر أجزاء دولة سلاجقة العراق ، غير أنه لم يكن بالشخص الذى يستطيع تصريف مهام الدولة بحكمة وتدبر ، فقد شغل وقته باللهو والمجون مما جعل الأمراء يفكرون فى تولية غيره ، وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة ضده فقبض عليه فى همذان فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) ، وحبس فى قلعة ، ثم دس السم له ومات فى ربيع الآخر من عام ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م)[١] ، وأرسل الأمراء إلى ايلدگز حاكم أران وأكثر بلاد آذربيجان يطلبون منه الحضور ومعه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ

ابن زوجته آرسلان بن طغرل بن محمد ، فسار ايلدگز إليهم على رأس جيش كبير يرافقه آرسلان ونزلا بدار المملكة فى همذان وخطب لآرسلان بالسلطنة فى تلك البلاد ، واتخذ آرسلان ايلدگز أتابكا له ، وابنه محمد جهان پهلوان حاجباً ، وكان البهلوان هذا أخا السلطان لأمه ، ثم تحالف ايلدگز مع اينانج حاكم الرى ، وتزوج ابنه البهلوان بابنة اينانج ، وعاشت معه فى همذان .

وطبيعى أن يصبح ايلدگز منذ ذلك الوقت مهيمناً على جميع مرافق الدولة ، يتصرف فى كل الأمور برأيه ، أما آرسلان فقد صار رمزاً يملك ولا يحكم(١) ، وإن كان ايلدگز قد استطاع بكفاءته ، وحسن تدبيره ، ومساعدة ابنيه محمد جهان پهلوان وعثمان قزل آرسلان أن يرد كيد الأعداء وينتصر عليهم(٢) .

وبرز الأتابكة وحكام الأقاليم وأمراء الجيش على المسرح بقوة ، وأخذوا يستعينون بأبناء السلاطين كأدوات يستعملونها فى وقت الضرورة ، وقضى ايلدگز ردحاً طويلا من الزمن يحارب الأمراء حتى أصبحت شخصيته أكبر شخصية فى العراق وكردستان وآذربيجان ، وصار هو الحاكم الفعلى ، أما آرسلان

---

(١) حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٠

(٢) محمد بن ابراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ٥١ ، كرمانى : تاريخ أفضل ، ص ٤٣ .

فلم يكن له إلا الاسم ؛ تقرأ باسمه الخطبة ، وتضرب باسمه السكة[١] ، فكان ايلدكز هو القوة التى لها خطرها فى الدولة السلجوقية .

وقد ظل نفوذ ايلدكز قوياً طوال مدة حياته حتى توفى فى عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، فاحتل ابنه جهان پهلوان مكانه ، وخلفه فى نفوذه ، فسيطر على دولة سلاجقة العراق ، وغلبت شخصيته على شخصية أخيه السلطان آرسلان الذى آثر الانزواء حتى توفى فى عام ٥٧١ هـ (١١٧٥)[٢] ، وقيل إن أخاه جهان پهلوان سمه ليتخلص منه ، وولى مكانه ابنه الطفل طغرل[٣] .

وقد خلف طغرل أباه وكان طفلا فى السابعة من عمره فلم يكن له حول ولا طول ، وتركزت السلطة فى يد عمه جهان پهلوان بن ايلدكز ، فبلغت قوة جهان پهلوان بذلك درجة جعلت الحكام الأخرين يرهبون جانبه ، ويرسلون السفراء إلى بلاطه[٤] .

وقد تمكن جهان پهلوان بفضل قوته وشجاعته ، ومساعدة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ ، ٥٥٧ هـ ، ٥٦٣ هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٠١

(٣) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣٠١

(٤) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢

أخيه قزل آرسلان أن يصد خطر عدوين فى وقت واحد ؛ أحدهما ملك الأبخاز الذى أغار على آذربيجان ، والآخر محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه عم طغرل الذى أغار على العراق[1] وبذلك توطدت دعائم سلطنة طغرل .

* * *

تطور الأحداث خارج الدولة :

وكانت الأحداث خارج دولة السلاجقة قد تطورت تطوراً فى صالح المسلمين عامة ، وأهل السنة بصفة خاصة ، فقد تمكن صلاح الدين يوسف من أن يسقط دولة الفاطميين فى عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فأمر بقطع الخطبة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وبأن يُخْطَب للخليفة العباسى المستضىء وقد تم له ذلك دون عناء أو اضطراب[1] ، وبذلك أحل المذهب السنى فى مصر محل المذهب الشيعى ، فحقق أمنية كان يتوق إليها المصريون .

ثم صمم على مواصلة الجهاد والحرب ضد الصليبيين ، وكان هذا العمل يعد الهدف الأسمى فى نظره ، غير أنه رأى أنه لا بد له من السيطرة على سورية الإسلامية أولا ، فانتهز فرصة وفاة حاكمها نور الدين فى عام ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) ؛ وأعلن استقلاله

---

(٢) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع)

(١) أبو الفدا : ج ٣ ، ص ٥٣

بمصر ، ثم حارب اسماعيل بن نور الدين وتمكن من وضع يده على سورية ، كما أفلح أخوه توران شاه فى الاستيلاء على اليمن — فى الوقت نفسه — وبلغ نفوذ صلاح الدين بلاد الحجاز ، ولم يلبث الخليفة العباسى — فى عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م — أن أقره على حكم مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى ، وبذلك تفرد بالسلطنة[١] ، ثم تمكن فى عام ٥٨١ هـ (١١٧٥ م) من إخضاع الموصل وإدخال أمراء العراق تحت نفوذه وبذلك أحاط بالصليبيين وحصرهم بين شق رحى أحدها سورية والعراق والآخر مصر .

وتفرغ صلاح الدين بعد ذلك لقتال الصليبيين ، فاستولى على طبرية فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧) ، ثم تلتها موقعة حطين ، وقد انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً باهراً حاسماً فقد استسلمت بيت المقدس بعده بأسبوع ، ودانت له بسقوطها أكثر المدن التى كانت فى أيدى الصليبيين فى سورية وفلسطين ، وسقطت أغلب القلاع بعد سلسلة من المحاولات الباهرة التى شنها صلاح الدين فلم ينته عام ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) إلا بعد أن سقطت أخطر معاقل الصليبيين التى كانت أشواكا فى جنب جيوش المسلمين[٢]

(١) أبو الفدا : ج ٣ ، ص ٦٠

(٢) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٦٦ — ٧٦٧

وكادت هزيمة الصليبيين تودى إلى جلائهم التام ، لولا تحمس ملوك أوروبا وعلى رأسهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا لإعادة فتح بيت القدس ، ومجيء الحملة الصليبية الثالثة التى تمكنت من فتح عكا فى عام ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، ثم تم الصلح بين الطرفين فى عام ٥٨٩ هـ (١١٩٢ م) ، ولكن صلاح الدين توفى بعد ذلك بقليل(١) .

وكان لانتصارات صلاح الدين أثر كبير فى فل شوكة الصليبيين ، فأخذت كفة المسلمين ترجح منذ ذلك الحين ، وانتهى الأمر بطرد الصليبيين .

* * *

وقد حاول صلاح الدين — فى عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) — أن يحطم قلاع الإسماعيلية فى قزوين وبسطام ودامغان وأن يقضى على قوتهم ، فانتهز فرصة وصوله إلى الموصل ، والتمس من جهان پهلوان أن يسمح له بالمرور فى الأراضى الخاضعة لنفوذه ، حتى يصل إلى هذا الهدف ، ولكن جهان پهلوان خشى أن يشجع

(١) ارجع فى تفاصيل ذلك إلى ابن خلدون ج ٥ ، ص ٣٢١ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ١٢٠ ، الإصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٣٥٧ ، ابن العبرى ، ص ٣٨٦ — ٣٨٧ ، أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٨٣ — ٨٤

هذا صلاح الدين على غزو العراق فلم يسمح لصلاح الدين بالمرور فى أراضى سلاجقة العراق ، ووقف فى طريقه ، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين[١] .

ثم مرض جهان پهلوان بعد ذلك مباشرة ، ولم يلبث أن توفى فى أوائل عام ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وكان إلى آخر لحظة من حياته يسيطر على بلاد الجبل والرى وإصفهان وآذربيجان وأرانية وكان السلطان طغرل بن آرسلان معه والخطبة له فى هذه البلاد بالسلطنة ، وليس له من الأمر شىء ، وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان[٢] ، فلما مات خلفه فى السلطنة أخوه عثمان قزل آرسلان غير أن طغرل خرج عن حكمه ولحق به بعض الأمراء والجند ، كما تدخل الخليفة العباسى الناصر لدين الله لنصرة قزل آرسلان ، فبدأت بينهما سلسلة من الحروب وانتشرت الفتنة فى البلاد بعد أن كانت آمنة مطمئنة فى عهد جهان پهلوان ، فشبت نيران فتنة

---

(١) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨١ هـ أن صلاح الدين كان يحاصر الموصل فعلم بوفاة شاه أرمن ملك خلاط ففكر فى الاستيلاء عليها وسار إليها فى الوقت الذى توجه جهان پهلوان فيه للقيام بنفس المهمة ، ثم ترددت الرسل بين الطرفين وتم الصلح بينهما وخطب لجهان پهلوان فيها .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٥٢ هـ .

مذهبية فى إصفهان بين الشافعية والحنفية و كثر القتل والإحراق والنهب بين الفريقين مما يجل عن الوصف ، كما حدثت فتنة عظيمة فى الرى بين أهل السنة والشيعة ؛ فتفرق أهلها وقتل منهم عدد كبير ، وخربت المدينة وغيرها من البلاد ، وعمت الفوضى جميع الأرجاء ، وظهرت بوادر انهيار دولة السلاجقة بالعراق .

الفصل التاسع

انهيار دولة سلاجقة العراق

بدأ الستار ينزل على دولة سلاجقة العراق بعد موت جهان بهلوان ، فقد انتشرت فيها الفتن وعمت كثيراً من أنحاء البلاد ، وكان قزل آرسلان قد خلف أخاه جهان بهلوان فى السلطة ، وعزم على الرحيل إلى همذان مقر السلطنة لتسيير دفة الأمور[1] ، ولكن ابن أخيه السلطان طغرل ، كان قد أصبح شاباً ، فأراد أن يتخلص من سيطرة عمه ، فقامت المنازعات بين الطرفين ، وانضم كثير من الجند والأمراء إلى السلطان طغرل فقوى أمره ، وكثر جمعه ، ووضع يده على كثير من البلاد فأرسل قزل آرسلان إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يستنجده ويخوفه من طغرل ، ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه[2] ، فأمده الخليفة بجيش وصل إلى همذان قبل وصوله هو ، فاضطر الجيش إلى القتال

---

(١) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع)

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣ هـ

وحده مما أدى إلى هزيمته فى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، فرجع مدحوراً[١] .

ولما انتصر طغرل على جيش الخليفه ارتفعت أسهمه ، فأعلن علاء الدين حاكم مراغه الولاء له ، وتوجه إلى همذان لتقديم فروض الطاعة له ، فأكرمه طغرل وأودع لديه ابنه الصغير بركيارق[٢] .

وعاود قزل آرسلان التحرك صوب همذان فى أوائل عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) على رأس جيش كبير كما جهز الخليفة العباسى جيشاً آخر ، وصل إلى همذان واستولى عليها فى العام نفسه فتركها طغرل وتوجه إلى آذربيجان فوصل إلى تبريز ، بينما وصل قزل آرسلان إلى كرمانشاهان فلما علم برحيل طغرل إلى آذربيجان تبعه ، فرجع طغرل إلى همذان ، وهكذا ظل طغرل فى اضطراب[٣]

---

(١) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٧ ، وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٤ هـ أن الخليفة الناصر لدين الله جهز عسكراً كثيرا وسيرهم إلى مساعدة قزل آرسلان ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان ، فلم يصل قزل إليهم ووصل طغرل إليهم فالتقوا ثامن ربيع الأول بدايمرج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين ويبدو أن ابن الأثير يشير إلى هذه الواقعة التى ذكرنا أنها كانت فى عام ٥٨٣ هـ ، ويفهم من كلام راحة الصدور أن هذه الموقعة كانت فى أواخر عام ٥٨٣ هـ لأن الموقعة التى تلتها كانت فى المحرم من عام ٥٨٤ هـ (الراوندى راحة الصدور حواشى ص ٣٤٧)

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٤٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٨

وتنقل ، وأخذ الأمراء يتآمرون ضده ، فضعفت قوته ، ولم يجرؤ على دخول همذان عاصمة ملكه ، فأخذ يطوف حولها دون أن ينزل بها ، وغلبت قوة قزل آرسلان ، وتحرك فى صفر سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) من آذربيجان قاصداً همذان ، ولم يكن لطغرل طاقة الوقوف فى وجهه(١) .

وبدأ نجم قزل آرسلان فى الارتفاع وأخذ الرسل يفدون عليه من الأطراف معلنين التأييد له ، وأقبل جيش العراق من دار الخلافة لتأييده وأخذ نجم طغرل ودولة سلاجقة العراق فى الأفول ، وتوجه جيش الخلافة إلى همذان فى رمضان من عام ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، واستولى عليها ، وتصادف وجود طغرل بها ، فوقع أسيراً فى أيدى رجال الجيش(٢) ، ودخل قزل آرسلان العاصمة ، ثم سجن طغرل فى قلعة بآذربيجان(٣) .

وهكذا خلا الجو لقزل آرسلان وتوجه إلى همذان مقر الحكم وأخذ يبحث عن سلطان رمزى من السلاجقة يجلسه على عرشهم

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٥٥ وما بعدها ، وحواشى ص ٣٥٥

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ وحواشيها؛ حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٥

(٣) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٨–١٨١ ، تاريخ ابن الوردى ص ١٠٠

فى العراق ، واتجه تفكيره إلى سنجر بن سليمانشاه ، فأخرجه من السجن ليجلسه على العرش ، ووزع الإقطاعات على الأمراء ثم توجه إلى إصفهان ، وتزوج بالخاتون زوجة أخيه جهان پهلوان ، فتهيأت له جميع أسباب العظمة ، ولاحت عليه مخايل الملك ، ولم يلبث أن وصلته رسالة من الخليفة العباسى تظهر رضاه وموافقته على أن يلى قزل آرسلان نفسه عرش السلطنة ، فأعلن نفسه سلطاناً فى عام ٥٨٧ هـ (١١٩١ م)[١] . وأصبح واضحاً أن بساط سلاجقة العراق قد طوى ، كما طوى بساط سلاجقة المشرق من قبل .

غير أن أمراء العراق حقدوا عليه هذه المنزلة[٢] ، وخشوا أن يفتك بهم ، كما أن زوجته الجديدة تعاونت معهم[٣] ، ويقال إنها كرهته لسوء سلوكه ، وانصرافه عنها ، فأخذت تدبر مع ابنها قتلوغ إينانج بن جهان پهلوان وسيلة لقتله[٤] وهكذا تعاونت زوجته مع أمراء العراق ودبر الجميع مؤامرة لقتله ، وأرسلوا إليه من قتله وهو نائم على فراشه[٥] .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٣

(٢) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع)

(٣) نفس المرجع والصفحة

(٤) هذا ما ذكره الحسينى فى أخبار الدولة السلجوقية

(٥) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٧ هـ

وكانت الدولة حينذاك تموج بفتن كثيرة متنوعة ، فلم يعرف قتله على وجه التحديد ، فكما رجح أن زوجته وأمراء العراق دبروا مؤامرة لقتله كما مر ، قيل إنه قتل بسبب اضطهاده للشافعية وقتله كثيراً من مشايخهم لأن نزاعاً ثار فى ذلك الوقت بين الشافعية والحنفية فى إصفهان ، كما اتهم الإسماعيلية بقتله[١] .

ومهما يكن من شىء ؛ فإن هذا يدل على أن قوة أتابكة آذربيجان قد بلغت حداً جعلتهم جديرين بتولى عرش السلطنة ، وأن سلاجقة العراق كانوا ضعافاً يتلاعب بهم الأتابكة وحكام الأقاليم كالدمى ، فيضعونهم على العرش وقتما يشاءون ، ويرفعونهم عنه حينما يريدون .

ولما اختفى قزل آرسلان من فوق المسرح ، أصبح الأمراء سادة الموقف ، فأخذوا يقسمون النفوذ بينهم ، وأخذ نفوذ الأتابكة يقل تدريجياً ، حقيقة إن نصرة الدين أبا بكر بن جهان پهلوان قد خلف عمه قزل آرسلان فى النفوذ إلا أنه اكتفى بحكم آذربيجان ؛ بينما اقتسم أمراء العراق وأخوه قتلغ إينانج حكم العراق ، وأخذت المنافسة بين الأخوين تظهر بصورة قوية ، فشبت الحروب بينهما دون انقطاع حتى روى أنها شبت أربع مرات فى شهر واحد[٢] .

وشغل أمراء العراق بالمغانم ، فتمكن السلطان طغرل من

---

(١) تاريخ البناكتى (القسم الرابع) .

(٢) أمير يحى القزوينى : لب التواريخ (الجزء التاسع) ، خواندامير : حبيب السير ، ١٠٧

الخروج من الحبس وتعاون مع بعض الأمراء فجمع جيشاً حارب به الأمراء وابن عمه قتلغ اينانج بالقرب من قزوين وانتصر عليهم، ثم توجه إلى مقر حكمه فى همذان حيث جلس على العرش[1]، وأقره على ذلك كثير من حكام الأطراف، فاسترد عرشه المغصوب، وتفرق أمراء العراق وهاموا على وجوههم، فتوطدت دعائم سلطنة طغرل إلى حد ما، ولم يبق أمامه إلا أن يقضى على ابن عمه قتلوغ إينانج الذى كان قد تحصن فى مدينة الرى، واستعان بتكش حاكم خوارزم فأمده بجيش استولى على مدينة الرى وسيطر على قلعة طبرك، فتوجه السلطان طغرل إلى الرى وحاصر هذه القلعة واستولى عليها وخربها وأخمد الفتنة فيها وقتل قائد جيش خوارزم وأسر أمراءه وكان ذلك فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة (١١٩٤ م) ثم رجع إلى عاصمته همذان[2]، ولكن الجيش الخوارزمى عاود مهاجمة الرى، ودارت بينه وبين جيش طغرل معركة عنيفة بالقرب من الرى فى الرابع من المحرم من سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) انتصر فيها جيش طغرل وانهزم جيش خوارزم هزيمة نكراء وقتل كثير من قواده[3].

---

(١) الراوندى : راحة الصدور، ص ٣٦٤ وحواشيها، ابن الأثير : الكامل، حوادث سنة ٥٨٨ هـ

(٢) الراوندى : راحة الصدور، ص ٣٦٦

(٣) نفس المرجع والصفحة وحواشيها

وكان السلطان قد تزوج من الخاتون زوجة عمه جهان پهلوان ، ولكن رجاله لم يلبثوا أن خوفوه منها ، وقالوا له إنها تدبر مؤامرة لقتله كما فعلت مع عمه قزل آرسلان بغية التخلص منه[١] ، وتهيئة الفرصة لابنها قتلوغ اينانج بن جهان پهلوان ، فدس طغرل لها السم وتخلص منها ، فأثار بذلك حمية ابنها الذى استعان بعلاء الدين تكش حاكم خوارزم — وكان قد استعان به منذ عام ٥٨٨ ﻫ (١١٩٢ م) — فأمده بجيش استولى على الرى على ما ذكرنا ، ففكر طغرل فى أوائل عام ٥٩٠ ﻫ (١١٩٣ م) فى تفقد أجزاء دولته خشية أن يعاود الجيش الخوارزمى مهاجمة بلاده فتوجه إلى الرى فى المحرم من هذا العام ، ففر قتلوغ اينانج وأرسل إلى حاكم خوارزم يدعوه لمساعدته ، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة العباسى إلى حاكم خوارزم يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الرى فتلقاه قتلوغ اينانج ومن معه بالطاعة[١] ، وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله ، أسرع للقائه قبل أن يستجمع كل قواته ودارت بين الطرفين معركة عنيفة بالقرب من الرى من العام نفسه ، وحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر

---

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٦٧ وحواشيها

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ ﻫ

خوارزم فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه[١] . ويقال إن قتلوغ اينانج ابن عمه هو الذى قام بقتلة وقطع رأسه[٢] وإرسالها إلى بغداد ثم سار تكش الخوارزمى إلى همذان فوصل إليها واستولى عليها وجلس على عرش السلاجقة[٣]، فكان هذا إيذاناً بانهيار سلاجقة العراق ، ثم لم يلبث تكش أن استولى على مملكة العراق جميعها ، فملك تلك البلاد ، وأقر الخليفة الناصر لدين الله العباسى هذا الوضع ، ثم أسند حكم إصفهان إلى قتلوغ اينانج وأقطع كثيراً من بلاد تلك الأقاليم لماليكه[٤]؛ وهكذا ظل معسكر سلاجقة العراق زاخراً بالمنازعات والحروب حتى دالت دولتهم على يد الدولة الخوارزمية التى استولت على ممتلكاتها فى الشرق والغرب ، وصارت أكبر قوة فى إيران والعراق .

والواقع أن تاريخ السلاجقة كان مليئاً بالأحداث التى كانت

---

(١) الراوندى : رحة الصدور ، ص ٣٧١ ، ويذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٩٠ هـ أن ذلك كان فى ربيع الأول لا فى جمادى الآخرة

(٢) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣٠٢ ؛ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقيه ، ص ١٧٢ — ١٧٦ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٥

(٤) نفس المرجع والصفحة واقرأ استيلاء تكش على العراق ، ص ٣٧٥ — ٤٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٧ هـ

تتلاحق فى صور متتابعة ، وكانت الأحداث السياسية تطغى على غيرها من الأحداث ، وتجعل الدارس ينصرف بكلياته إلى تتبعها دون غيرها من الأحداث الأخرى ، ولذلك نرى من المناسب أن نختم حديثنا عن تاريخ السلاجقة بعرض موجز لمظاهر الحضارة المختلفة فى عصرهم .

الفصل العاشر
مظاهر الحضارة فى العصر السلجوقى

كان لسيطرة السلاجقة على إيران والعراق وما جاورها آثار واضحة فى مختلف مظاهر الحضارة فى عصرهم ؛ ويستطيع الدارس أن يلمس هذه الآثار بوضوح فى النواحي السياسية والإدارية والدينية والاجتماعية والفنية .

١ — الناحية السياسية

نظام الحكم

السلطنة :

قسم السلاجقة دولتهم — منذ إنشائها — إلى أقاليم ، وعينوا على كل إقليم منها حاكما من أفراد البيت السلجوقى ، كانوا يطلقون عليه لقب « الملك » (شاه) ، ثم اختاروا رئيساً أعلى للدولة جميعها ، أطلقوا عليه لقب « السلطان » كان بمثابة « ملك الملوك » ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ، وتنفذ كلمته فى جميع أنحاء الدولة .

وقد اتبع السلاجقة هذا النظام منذ عهد طغرل الأول[١] إلى نهاية دولتهم ، وكان حاكم كل إقليم يستقل بشئون إقليمه الداخلية ، كما كان له الحق فى فتح ما يستطيع إليه سبيلا من المناطق المجاورة له ، وضمها إلى حوزته ، وكانت سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم فى إبان قوة الدولة . فلما ضعفت الدولة وتجزأت ، فقد السلاطين هذه السيطرة وأصبح حكام الأقاليم مستقلين تماماً فى جميع شئونهم ، ووصل بعض عبيد السلاطين إلى مناصب حكام الأقاليم وصاروا يتحكمون فى السلاطين أنفسهم وفى اختيارهم وعزلهم كما رأينا .

وقد ظل السلاطين يحرصون على الظفر بموافقة الخلفاء العباسيين على توليهم مناصبهم ، حتى يكتسبوا الصفة الشرعية ، وكان الخلفاء — لضعفهم — يمنحون موافقتهم لمن غلب .

ولم يكن هناك نظام معين لاعتلاء عرش السلطنة ، بل كان يعتليه أكثر السلاجقة قوة وأبرزهم شخصية ، وقد بدت هذه الظاهرة عند قيام الدولة السلجوقية ، فقد اعتلى طغرل الأول العرش بينما كان أخوه جغرى بك — الذى يكبره سناً — على قيد الحياة .

وكان النزاع حول عرش السلطنة يثور كلما توفى سلطان من

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤

سلاطين السلاجقة — رغم أن بعض السلاطين عهد بولاية العهد لأكبر أبنائهم — فكان الأمر ينتهى — غالباً — بتحكيم السيف .

وكان السلطان السلجوقى يمارس سلطات واسعة ، فيقود الجيش ، ويدبر المعارك ، ويعين حكام الأقاليم والوزراء والقواد والحجاب ويعزلهم ، ويفرض كلمته على الخليفة العباسى ، ويحصل منه على لقب : « ركن الدنيا والدين » أو « معز الدنيا والدين » أو « مغيث الدنيا والدين » مقروناً بلقب : « يمين أمير المؤمنين » أو « برهان أمير المؤمنين » أو « قسيم أمير المؤمنين »(١) .

ورغم هذا ؛ فإن صفة البداوة كانت غالبة على سلاطين السلاجقة ، وكانت النزعة القبلية مسيطرة عليهم ، مما جعلهم يكثرون من الاستعانة بالموظفين ، من مختلف الدرجات ؛ ويعتمدون عليهم فى تصريف شئون الدولة المتنوعة .

* * *

الوزارة :

كان منصب الوزارة من أهم المناصب فى الدولة السلجوقية ، فقد كان الوزير يرأس جميع رجال الديوان ويشرف على جميع أعماله

---

(١) ارجع إلى راحة الصدور للراوندى فى بداية تعريفه بكل سلطان .

الدولة ، ويخضع له موظفوها ، مما جعل الوزير يمسك بيده زمام الأمور فى الدولة ، ويستطيع توجيه سياستها فى الداخل والخارج .

كما كانت سلطة الوزير تمتد إلى حكم الولايات المختلفة ولا سيما إذا كان الوزير قوياً نافذ الكلمة فى الدولة ، وكثيراً ما كان يقوم بإسناد حكم الولايات إلى الأمراء وقواد الجيش(١) .

وكان منصب الوزارة من أهم المناصب فى الدولة العباسية — أيضاً — ؛ وقد اقتبس العباسيون هذا النظام عن الفرس لأن دولتهم قامت بمساعدة الفرس ، فتقلد الوزارة فى العصر العباسى الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم . وساعد ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى على ازدياد نفوذ الوزراء ، واشتداد المنافسة على الوزارة ، ومن ثم تفشى الدس ، وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة(٢) .

وكان الوزير فى عهد السلاجقة يسمى « السيد الأعظم » (خواجهٔ بزرگ) وكان يشرف على جميع أجهزة الحكم ، فيخضع له ديوان الاستيفاء ، وديوان الأشراف ، وديوان الأوقاف وديوان الإنشاء ، وقد ألغى السلاجقة ديوان البريد رغم أهميته(٣) .

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ — ١٣٠

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٥٥

(٣) نظامى عروض سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤

وكان يشرف على كل ديوان من هذه الدواوين رئيس يصرف شئونه ، تحت إشراف الوزير ، مما جعل منصب الوزير من المناصب التي تشتد حولها المنافسات ، وتكثر حول المضطلعين بها الدسائس والمؤامرات .

ويعد نظام الملك أشهر وزراء السلاجقة ، فقد بلغت سلطة الوزير فى عهد وزارته أقصى درجاتها ، فكان واسع السلطة ، نافذ الكلمة ، يقضى بأمره فى جميع الشئون ، ويلتف حوله الجند ، ويخشى السلطان نفسه أن يعزله .

وظفر كثير من أبنائه وأحفاده بهذا المنصب أيضاً فأشرفوا على توجيه سياسة السلاجقة فى مراحل مختلفة من تاريخهم — كما مر — .

وقد أرشد نظام الملك إلى أسلم النظم لحكم الولايات وإدارة شئون البلاد فى كتابه « سياستنامه » ، فرسم المنهج الصحيح للحكم بما يحقق رغبة الحاكم ، ويرضى مشاعر المحكومين على السواء .

وقد كثر التنافس على منصب الوزارة طوال حكم السلاجقة تقريباً ، واشتد هذا التنافس بعد موت ملكشاه واختفائه هو ووزيره نظام الملك من المسرح السياسى — كما مر — ، وبلغ حداً جعل الطامعين فى هذا المنصب يثيرون الفتن بين

أفراد البيت السلجوقى ، فساعدوا بذلك على إفساد الحياة السياسية ، وانقسام دولة السلاجقة ، وإضعافها .

* * *

الحجابة :

كانت وظيفة الحجابة من الوظائف الرئيسية فى الدولة ، فقد كان الحاجب ينظم الاتصال بين الناس والسلطان[1] ، ويعد من أهم رجال البلاط .

وكان الحاجب الأعظم (حاجب بزرگ) يشرف على سير الأمور فى البلاط ، وكان نفوذه يصل — أحياناً — إلى درجة التدخل فى شئون الدولة المختلفة ، وفى تعيين حكام الأقاليم ، بل إن الحجاب كثيراً ما كانوا يستبدون بهذه الشئون دون الوزراء ، فكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى المسائل المتعلقة بدواوينهم ، ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم ، وكثيراً ما كان الحاجب يصبح هدفاً لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه ، وعظم استبداده بأمور الدولة[2] .

* * *

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

الكتابة :

أدى تعدد الدواوين فى الدولة السلجوقية إلى تعيين طائفة من كبار الموظفين للإشراف على هذه الدواوين ، وكان كل من هؤلاء الموظفين يسمى « الكاتب » . وكان من أشهرهم : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند .

وكانت مهمة كاتب الرسائل تحرير الرسائل السياسية والأوامر السلطانية بعد اعتمادها من السلطان ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية ، وختمها بخاتمه ، كما كان يجلس مع السلطان فى مجلس القضاء ، ويتولى مكاتبة الأمراء والحكام .

ولهذا كله كانت وظيفة الكاتب بصفة عامة ، ووظيفة كاتب الرسائل بصفة خاصة من الوظائف المهمة فى الدولة . وقد حدد ابن خلدون الصفات التى يجب توفرها فى كاتب الرسائل فى قوله : « واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير من أرفع طبقات الناس . وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجلس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع

ما يضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »[١] .

ومن أشهر كتاب الرسائل فى العصر السلجوقى منتجب الدين الجوينى كاتب الرسائل فى عهد السلطان سنجر السلجوقى ، وقد حفظ لنا كثيراً من الرسائل والأوامر السلطانية فى كتابه «عتبة الكتبة » نستطيع أن نلم عن طريقها بكثير من الأمور التى كانت تجرى فى دولة السلاجقة ، وأن نعرف شيئاً عن بعض وزرائهم وعلمائهم وكتابهم[٢] .

* * *

٢ — الناحية الإدارية

حكام الأقاليم :

كانت الدولة السلجوقية تتألف من عدد من الأقاليم فقد قام السلاجقة عقب قيام دولتهم بتقسيم المناطق المفتوحة بينهم[٣]، — كما مر — وكانت أشهر الأقاليم التى تشملها الدولة فى أوج قوتها خراسان وما وراء النهر وبست وهراة وسيستان وكرمان وهمذان وأبهر

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٥

(٢) ارجع إلى عتبة الكتبة لمنتجب الدين الجوينى طبع طهران ، ١٣٢٩ هـ شمسية .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٤

وزنجان وآدربيجان ، والرى وإصفهان وفارس ، وبلاد الشام وآسية الصغرى .

وكان يعين على كل إقليم من هذه الأقاليم والٍ من قبل السلطان ، وكان أكثر الولاة من أفراد البيت السلجوقى ، وكان يساعدهم عدد من الموظفين ، كما كانوا يتخذون الجند ويستعينون بالقبائل فى تكوين الجيش التابع لكل منهم .

فلما ضعفت الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه ، أصبح ولاة الأقاليم مستقلين — تقريباً — ، فكان كل منهم يصرف شئون إقليمه حسبما يتراءى له ، فانعدمت الوحدة والانسجام بين أجزاء الدولة السلجوقية .

وقد ساعد هذا النظام على ظهور أهمية المدن والثغور ، وازدادت هذه الأهمية بمرور الزمن ، حتى صارت لبعضها شخصية واضحة مميزة لها مقوماتها الخاصة كمرو والرى وإصفهان وتبريز ومراغة وگنجه ، كما أصبحت الثغور تؤدى واجباً دينياً مقدساً ، هو صد أعداء الإسلام عن الديار الإسلامية ، مما أضفى عليها وعلى حكامها أهمية كبيرة وجعل ولاة الثغور موضع تقدير المسلمين ، ومدح الشعراء والكتاب[1] .

* * *

(١) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٥٨

الدواوين :

كانت الدولة السلجوقية تتكون من ولايات كثيرة — كما مر — مما جعل كل ولاية فى حاجة إلى ديوان يشرف على شئونها ، وكان سلطان السلاجقة يشرف على إدارة هذه الولايات جميعها فى أوقات قوة الدولة وتماسكها ، بمساعدة وزيره ورؤساء الدواوين التابعة له .

وكان أهم الدواوين فى ذلك الوقت ديوان الرسائل وديوان الاستيفاء ، وديوان الجيش(١) .

وكان لكل ديوان من هذه الدواوين رئيس ، تشبه مهمته مهمة الوزير فى العصر الحاضر ، يساعده عدد من الموظفين .

وكان ديوان الرسائل يشرف على جميع المكاتبات الرسمية ، وينظم علاقات الدولة فى الداخل والخارج .

أما ديوان الاستيفاء فكان أشبه بوزارة الخزانة يشرف على جمع الضرائب ، وينظم إيرادات الدولة ومصروفاتها .

وكان ديوان الجيش أشبه بوزارة الحربية يتولى شئون الجند ، وما يتعلق بالمسائل العسكرية .

وقد أدت كثرة الدواوين إلى استعمال كثير من الموظفين غير أن الإدارة فى الدولة السلجوقية لم تصل إلى درجة تعيين

---

(١) إقبال : تاريخ إيران ، ص ١٦٦

الحدود الفاصلة بين هذه الدواوين بدقة نظراً لبداوة السلاجقة ، وتأثير النظام القبلى فيهم ، ممـا جعلهم لا يلمون بالنظم الإدارية إلماماً كافياً .

وقد ألغى السلاجقة ديوان البريد ، وكان من الدواوين الرئيسية فى الدولة العباسية ، لأن صاحب البريد كان يراقب العمال ويتجسس على الأعداء ، فكان عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته وعماله . وكما ينقل أخبار هؤلاء إليه[1] .

* * *

الشرطة :

كان لكل أمير من أمراء السلاجقة حرس وأتباع ، يرأسهم شخص يسمى « أمير الحرس » ، وكان حكم المدن الرئيسية فى الدولة يوكل إلى شخص يسمى « صاحب الشرطة » وكانت مهمته الإشراف على الجند الذين يحافظون على النظام ، ويعملون على استتباب الأمن .

وكانت وظيفة صاحب الشرطة من الوظائف الإدارية الهامة فى الدولة ، مما جعل الدولة تنفق على رجال الشرطة عن سعة ، وتمنحهم الرواتب الكبيرة . وكانت الحكومة المركزية فى

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .

حاضرة الدولة تعتمد على صاحب الشرطة فى إقرار الأمن وحفظ النظام .

وكان العباسيون يهتمون بالشرطة — أيضا — ويختارون صاحب الشرطة من علية القوم ، ومن أهل العصبية والقوة [١] ، وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حالة استبرائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها .

* * *

٣ — الناحية الدينية

كانت الفرق الإسلامية كثيرة فى العصر السلجوقى ، مما أدى إلى كثرة المنازعات بينها ، وقد أثرت هذه الحالة فى حياة الناس الدينية ، فكان من أهم ظواهرها شيوع التعصب والخرافات والميل إلى العزلة والانزواء .

وكانت هناك معسكرات سياسية ذات صبغة دينية ، أهمها المعسكر السنى ، وكان يمثله العباسيون فى بغداد ، والمعسكر الشيعى ممثلا فى الفاطميين — فى مصر وأجزاء من شمالى إفريقية والشام — والاسماعيلية — فى إيران — ؛ ثم المعسكر المسيحى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

وكان يمثله الصليبيون فى بعض أجزاء آسية الصغرى والشام وفلسطين على حدود العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

أما المعسكر السنى فى بغداد ، فكان ضعيف الشأن مختل الأوضاع[١] بعد أن طغى فيه نفوذ الأمراء والوزراء ، وحكام الدول التى طفت على سطح الخلافة العباسية ، وكان نفوذ السلاجقة قوياً نافذاً ، أدى إلى تلاشى هيبة الخلافة ؛ غير أن العباسيين — رغم هذا — كانوا قوة روحية لها أثرها فى حياة الناس الدينية ، فكانت تلتف حولهم قلوب أهل السنة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، مما جعل سلاطين السلاجقة أنفسهم يحرصون على الحصول على تفويض منهم بالحكم حتى يكسبوا حكمهم صفة شرعية ، تجعل الناس يرضون به ، فلا يثورون عليه .

وأما المعسكر الشيعى فكان ضعيفاً فى مصر بعد أن ضعف الخلفاء الفاطميون ، وصاروا ألعوبة فى أيدى الوزراء ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن سقطت فى عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) فامتد نفوذ المعسكر السنى إلى القاهرة .

غير أن المعسكر الشيعى كان قوياً فى إيران ، لأن الإسماعيلية ظلوا — فى كثير من مراحل الدولة السلجوقية — قوة لها خطرها ، وقد واصلوا نشاطهم ، فأثروا فى حياة الناس تأثيراً

(١) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٤٩ وما بعدها

ملحوظاً ، وكانوا مصدر فزع ورعب لأهل السنة ، فاضطربت حياتهم اضطراباً شديداً(١) .

وأما المعسكر المسيحى ، فكان بطبيعته معسكراً غير إسلامى يناهض المعسكرين السنى والشيعى ، ويحاول السيطرة على بلاد المسلمين أيا كان مذهب حكامها .

وقد عاصرت هذه المعسكرات جميعها الدولة السلجوقية التى كان حكامها يتبعون المذهب السنى ، ويتعصبون له ، فرجحت كفة هذا المذهب ، وخصوصاً بعد أن ضعف المعسكران الشيعى والمسيحى فى أواخر عصر السلاجقة — كما مر — .

ولكن وجود هذه المعسكرات الدينية المتباينة جعل حياة الناس النفسية قلقة ، غير مستقرة ، مملوءة بالخوف والتشتت ، وبلبلة الأفكار ، فكانت حياتهم الدينية مضطربة مهددة دائماً ، مما أشاع فيهم النفاق ، وحبب الكثير منهم فى العزلة والانزواء .

* * *

المعتزلة :

تعد حركة المعتزلة من أهم الحركات الدينية التى ظهرت فى العالم الإسلامى ، وقد ازدهرت هذه الحركة فى عصر المأمون

(١) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٥٢ — ٥٦

العباسى الذى وافق المعتزلة فى القول بخلق القرآن ، واستخدم نفوذه فى إقرار هذه العقيدة فى أذهان الناس(١) .

وقد تطور مذهب المعتزلة فى العصر العباسى الثانى ، فاتخذ شكلا جديداً ، وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو كما انقسم إلى أقسام تتفق جميعاً فى نقط معينة ، فقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفى الصفات الإلهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله ، وقرروا أن إدراك وسائل الخلاص وطرق النجاة ، إنما ترجع إلى سلطان العقل(٢) .

وقد تأثر المعتزلة تأثراً شديداً بالفلسفة الإغريقية ، فاقتبسوا منها ، وأجهدوا أنفسهم فى أن يضيفوا إلى المعانى الإسلامية التى جاء بها القرآن ، جميع ما احتوته الثقافة اليونانية من أفكار علمية وفلسفية وأن يلائموا بينها ، ويخرجوا منها مزيجاً جديداً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله(٣) .

ومن أشهر فلاسفة المسلمين أبو نصر الفارابى(٤) وأبو على ابن سينا(٥) ثم ابن رشد ؛ وقد نشأ الخلاف بين الاعتزال

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢١٣

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٢١٦

(٣) Browe : A Literary History of Persia, vol. 1. p. 288.

(٤) توفى الفارابى فى عام ٣٣٩ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٧٦)

(٥) توفى ابن سينا فى عام ٤٢٨ هـ (المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ – ١٥٤

والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من ناحية أخرى ، وأفنى المعتزلة قواهم فى المناقشات المستمرة التى أثارتها مدرستا البصرة وبغداد ، وظل المعتزلة أقوياء ، حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعرى ، وصرعهم الغزالى[١] .

* * *

أهل السنة :

كانت شوكة المعتزلة قد فلت إلى حد كبير فى العصر السلجوقى بينما كان مذهب أهل السنة قد انتصر انتصاراً ملموساً ، وساعد تعصب السلاجقة للمذهب السنى على انتعاش السنة .

والواقع أن مذهب المعتزلة أخذ فى الضعف فى أثناء القرن الرابع الهجرى ، بعد أن حمل أبو الحسن الأشعرى على آراء المعتزلة وحاربهم حرباً شعواء ووافق أهل السنة فى كثير مما ذهبوا إليه .

ويعد الأشعرى الرجل الذى قهر المعتزلة ، وقوض دعائم نظرياتهم ، وأعاد لإيمان السلف منزلته العالية ، فبقى بعده تراث أهل السنة[٢] ، وقد حارب الأشعرى المعتزلة بسلاحهم من منطق

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢١٨

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص ١٥٥ — ٢٧٨ ؛ الشهرستانى : الملل والنحل ؛ ص ٦٥ — ٧٥

وفلسفة ، وأصبح مؤسس علم الكلام فى الإسلام ، وغلبت بعده النزعة المدرسية على التفكير الإسلامى ، وهى النزعة التى ترمى إلى التقريب بين تعاليم الدين وبين مبادئ الفكر اليونانى[١] .

وقد دعا الأشعرى إلى إطاعة أوامر الدين والتزامها دون ممانعة ، مما أدى إلى إخماد حرية الفكر ، وإيقاف البحث العلمى ، وقد كان الغرض من إنشاء المدارس النظامية التى أسسها الوزير السلجوقى نظام الملك ، نشر الطريقة الأشعرية فى الفقه الإسلامى .

وكان لجهود الأشعرى أثر كبير فى إحياء السنة ، وقد تم انتصار السنة على الاعتزال بظهور حجة الإسلام الغزالى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وقد وجه جهوده إلى الإشادة بمذاهب أهل السنة والحط من شأن الاعتزال والفلسفة وغيرهما .

ويعد الغزالى[٢] أعظم فقهاء الإسلام ، لأن إليه يرجع الفضل فى تثبيت دعائم المذهب الأشعرى واتخاذ تعاليمه عقيدة إسلامية شاملة فى ذلك الوقت .

وقد ولد الغزالى فى عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ، وشب على

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .
(٢) بتشديد الزاى نسبة إلى غزال من الغزل .

مذهب أهل السنة ، ثم أخذ فى التصوف ؛ وكان الغزالى ممن اشتغلوا بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد مدة من الزمن — منذ عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م — وألف بعد جنوحه إلى التصوف كتباً أهمها كتاب « إحياء علوم الدين » الذى حاول فيه أن ينعش الشريعة الإسلامية ويوضح طريق السنة فى الصورة الصوفية التى رآها فى ذلك الوقت ، وكانت كتب الغزالى الأخرى مثل : « فاتحة العلوم » و « مقاصد الفلاسفة » و « الاقتصاد فى الاعتقاد » تدل على مدى ما وصلت إليه تأملات أهل السنة وأفكارهم فى ذلك الوقت ، وتوفى الغزالى فى عام ٥٠٥ هـ (١١١١م) بعد أن سار فى هذا الطريق شوطا طويلا .

* * *

الصوفية :

راجت سوق الصوفية فى العصر السلجوقى ، وقد ساعد على رواجها ما ساد الحياة السياسية من اضطراب وتشتت ومنازعات ، وشيوع التعصب والخرافات ، وكثرة النزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة ، وعداوة أهل العلم بعضهم للبعض الآخر ، وغلبة الجفاف على المباحث العلمية والفلسفية ، واستخدام العلم والفلسفة أداة

للمجادلات المذهبية ، وجعل المباحث العلمية محصورة داخل نطاق الإحساسات المذهبية[1] .

وكانت هذه الأوضاع سبباً فى انحراف العلم عن محوره الحقيق الذى هو البحث عن حقائق الأشياء ، فشاع ضيق النظر وأصبحت الحكمة والفلسفة خادمتين لمجادلات أصحاب المذاهب ومناظراتهم .

وقد انتشرت هذه الظواهر فى القرن الخامس الهجرى ، فكثرت الفرق الإسلامية ، وراجت سوق الأشاعرة ، وتعددت الحروب بين أهل السنة والشيعة ، وفتح كل فريق منهم مدارس ، ورتب مجالس للدرس ، وحاول كل منهم ترويج مذهبه ، والانتصار على أعدائه ، كما حاولت كل فرقة تخريب مدارس الفرقة الأخرى ، وكانت تعد هذا العمل قربى إلى الله ، كما حاول كل فريق أن يسفك دماء مخالفيه حتى يظفر بالمثوبة من الله ؛ وثار الغزالى — فى أواخر ذلك القرن — فى وجه الفلاسفة ، وأخذ يسفه أحلامهم ، ويكفرهم فى كتابه « تهافت الفلاسفة »[2] ؛ كما ذكر القفطى أن معاصرى عمر الخيام تناولوه بالقدح فى دينه ، حتى ترك نيسابور وذهب إلى الحج ، وكان — بعد رجوعه من

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٦٤ .

(٢) الغزالى : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ — ٤

مكة — يخفى أسراره ويتظاهر برعاية ظواهر الشرع (١).

وقد اشتد النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة والمعتزلة والأشاعرة، كما ظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة — وخصوصاً بين الشافعية والحنفية — وكان النزاع بين هذه المذاهب المختلفة يتطور إلى درجة الحرب أحياناً(٢).

وقد أشار ابن الأثير — فى حوادث عام ٤٠٧ هـ — إلى قتل الشيعة بإفريقية — كما ذكر — فى حوادث سنة ٤٠٨ هـ — النزاع بين أهل السنة وأهل محلة الكرخ الشيعة؛ ثم تحدث — فى حوادث عام ٤٣٣ هـ — عن النزاع بين أهل السنة والشيعة، وتخريب أهل السنة منازل الشيعة وأبنيتهم، حتى قبور كاظمين، وذكر مثل هذا النزاع — فى حوادث عام ٤٤٤ هـ — وقال إنه امتد إلى عام ٤٤٥ هـ وهكذا. مما يدل على اضطراب الأحوال الدينية فى العالم الإسلامى، واستمرار النزاع بين الفرق الإسلامية، وأصحاب المذاهب المختلفة، وقد أدى هذا كله إلى بلبلة الأفكار، فتفرق المسلمون وغلبتهم موجة التعصب — خصوصاً فى القرن السادس الهجرى — الذى انقسمت فيه دولة السلاجقة إلى أقسام متنازعة(٣). ويسر السبيل أمام الصوفية لنشر تعاليمهم بين

---

(١) القفطى : تاريخ الحكماء، ص ١٦٢ — ١٦٣

(٢) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام، ص ٤٦٨.

(٣) ارجع إلى كتاب نظام الكنجوى المؤلف، ص ٥٧ — ٧١.

الناس ، الذين كان كثير منهم لا يجدون فى علم الكلام ، ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله تعالى ، مما جعلهم يفضلون التقرب إلى الله عن طريق الزهد والتقشف .

وكان التصوف — حينذاك — يمثل حركة مضادة للنظر العقلى فى الدين ، وكان يعتمد على أساس نفسى هو تشويق المرء إلى أن يتقرب إلى الله تقرباً فردياً مباشراً .

وقد كانت الظروف جميعها تساعد على رواج سوق التصوف ، فأصبح الصوفية موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين لبعدهم عن المجادلات المذهبية ، مما أدى إلى انتشار التصوف ، وبروز طبقة المتصوفة ، وكثرة المتمسحين بها ؛ ووجد شيوخ الصوفية فى هذا فرصة مواتية لنشر تعاليمهم بين الناس ، وخصوصاً بين طبقات العمال والصناع والفقراء ، فضموا الكثيرين من هؤلاء إلى صفوفهم ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس .

وكان السلاجقة لبداوتهم وغلبة الصبغة القبلية عليهم يعجبون بالمظاهر البراقة ، فراقهم مظهر طوائف الصوفية وأعجبوا بتصرفات شيوخها ، فبالغوا فى احترامهم ؛ وليس أدل على هذا من زيارة السلطان طغرل الأول السلجوقى لبابا طاهر العريان الشاعر الصوفى المعروف فى همذان أثناء زيارته لها واستماعه لنصائحه التى ألقاها عليه ، ووعده بتنفيذها(١) ، ولعل السبب فى ذلك أن

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ — ٩٩

الصوفية كانوا يصبغون تعاليمهم بالصبغة الدينية ، ويزهدون فى الدنيا وحطامها الزائل ، ويبتعدون عن مصاحبة الملوك والأمراء وأصحاب الجاه والسلطان ، راضين بالزهد والقناعة ، كما كانوا لا يتدخلون فى النزاع بين الفرق المختلفة مستعملين سياسة السلام مع الجميع[١] .

وقد اشتد النزاع بين الفرق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وضعف مركز الخلافة العباسية فى وقت كانت الحروب الصليبية فيه على أشدها ، وتشكلت حكومات شبه مستقلة فى أنحاء العالم الإسلامى المختلفة ، وكثر النزاع بين الأمراء وحكام الولايات المختلفة ، فاضطربت الممالك الإسلامية ، وتلاشت المثل الأخلاقية — أو كادت — فاستفاد الصوفية من هذه الأوضاع وبثوا تعاليمهم الدينية ، التى بدا فى ذلك الوقت أنها تهدف إلى تهذيب النفوس[٢] .

وقد أشاع النزاع بين الفرق والتعصب وضيق النظر بصورة واضحة غالبة ، ونستطيع أن نستشف هذا من الكتب والأشعار التى حفظت لنا عن ذلك العصر ، فنرى فيها التظاهر بالفضل ، مصحوباً بالغرور إلى غير ذلك من مظاهر ضيق النظر .

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام ، ص ٤٧٣ — ٤٧٥

(٢) المرجع السابق ؛ ص ٤٨٢ .

كما بلغ نفوذ العلوم الدينية مبلغاً عظيما ، فانتشرت المباحث المذهبية ، وشاع الغلو والمبالغة فى الموضوعات المذهبية .

وأدى اضطراب الأوضاع فى البلاد الإسلامية إلى تزلزل الروح المعنوية ، وخوف الناس ، وتوقعهم الموت أو الأسر مما أدى إلى فساد الأخلاق وانعدام الفضائل كما ذكرنا ، فوجدنا أغلب شعراء القرن السادس يكثرون من الحديث عن انعدام المروءة ، وضياع الوفاء ، وانقلاب الأوضاع ، وإبدال الأمانة بالخيانة ، والمحبة بالعداوة والإنسانية بالجفاء ، وتحير العلماء ، وابتلاء الفضلاء ، ويذمون الاختلاط ، ويدعون إلى الوحدة والانزواء(١) .

وكان من علامات ضيق النظر اشتغال الشعراء والكتاب — غالباً — بالمسائل الشخصية التافهة لا بالمسائل العظيمة ، فعنوا بالجزئيات ، وشغفوا بذم طريقة مخالفيهم وصرفوا أوقاتهم وتفكيرهم فى الهجاء والقدح ، وراج بينهم مدح النفس ، وإظهار العلم والفضل والغرور والمفاخرة وأمثال هذه الأشياء مقرونة بالشكوى من بقاء قدر الواحد منهم مجهولا(٢) .

كما أوجدت روح العصر شيئاً من السأم ، فمال الناس إلى شيء من الترويح والصفاء ، وكان شيوخ الصوفية يحاولون القيام

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصرف در إسلام ، ص ٤٨٧

(٢) نظامى : كنجينة گنجوى ، ص ١٧٤ — ١٧٩ ، قاسم غنى : تاريخ تصوف ، ص ٤٨٩

بهذه المهمة لبعدهم من التعصب ، فأظهروا أنفسهم فى صورة دعاة للإصلاح والصفاء والعدل والوفاء ، فبدا للناس أنهم عامل ملطف فى ذلك الجو الملغم بالأحداث المختلفة ، والتيارات المتعارضة فهرع كثير من الناس إلى حظيرة التصوف هرباً من جور الزمان وقسوته ، وكثرت مجالس الصوفية وأقبل الناس عليها ، واشتدت هذه النزعة فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حتى إن الناس من غير الصوفية كانوا يفرون من جور الزمان إلى ساعة فى صحبة الصوفية بقلب فارغ[1] .

وهكذا أدى فساد الحياة السياسية فى عصر السلاجقة إلى فساد عقائد الناس وأخلاقهم مما ساعد على ضعف البلاد الإسلامية ، وساعد انقراض الخلافة العباسية على يد المغول فى القرن السابع الهجرى على ازدياد هذه الأشياء ، فضعفت عزائم المسلمين وانتشر بينهم التواكل ، وبدأوا مرحلة سبات عميق ظلوا يغطون فيه قروناً عديدة قبل أن توقظهم حركات النهضة والتحرر الحديثة .

٤ ــ الناحية الاجتماعية

طبقات الشعب :

كان السلاجقة ــ كما ذكرنا ــ قوماً تغلب عليهم البداوة ، وكان الطابع الذى غلب على حياتهم قبل قيام دولتهم هو الميل

---

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف ، ص ٥٠١

إلى التنقل والارتحال طلباً للرزق ، فلم يكونوا يألفون حياة المدن[1] التى تتسم بالاستقرار ، وبناء الدور والقصور . فلما أصبحت فى أيديهم مقاليد الأمور ، وسيطروا على إيران والعراق وما جاورها من البلاد الإسلامية ، تركوا آثاراً واضحة فى الحياة الاجتماعية ؛ فقد كان سلاطينهم الأولون غير مثقفين ، فوجدوا أنفسهم فى حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين للاستعانة بهم فى مختلف الشئون[2] ؛ فأصبحت طبقة الموظفين — بعد طبقة السلاطين والأمراء — من أظهر طبقات المجتمع وأهمها ، وكان نفوذ أفرادها يختلف باختلاف مناصبهم ، ومدى اتصالهم بالسلطان السلجوقى ، فكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب والكتاب — كما مر — فقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دوراً بارزاً موجهاً فى كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية ، بل إنهم استطاعوا فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة أن يسيطروا على السلاطين ، ويوجهوهم وفق إرادتهم .

كما ظهرت طبقة أبناء القبائل السلجوقية ، وقد ساعد على ظهورها وفود عدد من القبائل السلجوقية إلى إيران وغيرها من الأقطار الإسلامية ، واضطرار سلاطين السلاجقة — أحياناً —

---

(١) نظامى عروضى : چهار مقاله ، ص ٢٣ — ٢٤

(٢) بر تلس : نظامى شاعر آذربيجان ، ص ١٣

إلى إعطاء أفراد هذه القبائل مرتبات كالجنود سواء بسواء ؛ وكان وجود هذه الطبقة مصدر فتنة وقلق — أحياناً — خصوصاً فى الأوقات التى كان السلاطين فيها يحرمون أفرادها من مرتباتهم ، فكانوا يزيدون الحالة السياسية سوءاً واضطراباً[١] ، كما أثر وجود القبائل والنظم القبلية فى مظاهر الحياة المختلفة .

وكانت طبقة رجال الصوفية — أيضاً — من أهم طبقات المجتمع فى العصر السلجوقى ، وكان لهذا أثره فى حياة الناس الاجتماعية ، فقد أدى انتشار تعاليم الصوفية إلى حب الوحدة ، والميل إلى الاعتكاف والانزواء ، وساعد على تغذية هذا الشعور اضطراب الحالة السياسية ، وما ساد حياة الناس من قلق ، نزع من قلوبهم الاطمئنان إلى بعضهم البعض ، وأشاع بينهم الشك ، وعدم الإخلاص ، فانعدمت بينهم المثل الأخلاقية ، حتى إن إحدى فرق الصوفية — وهى فرقة الأخية الفتيان — كانت تستعمل السلاح كوسيلة لأخذ حقها ، وإصلاح المجتمع بالقوة إذا لزم الأمر ، والضرب على أيدى الظلمة ، وقتل الشرطة ، ومن لحق بهم من أهل الشر ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، والوقوف فى وجه الحكام الظالمين ؛ وكانت تعاليم هذه الفرق أكثر تمشياً مع نفوس سكان الثغور ، فانضوى كثير منهم تحت لوائها[٢] .

---

(١) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان ، ص ١٤

(٢) ابن بطوطة : رحلته ، ج ٢١ ص ١٨١ – ١٨٢

وهكذا أثرت غلبة العنصر السلجوقى فى إيجاد ظواهر اجتماعية ، كان لها آثار واضحة فى حياة الناس الاجتماعية فى العصر السلجوقى .

ومن طبقات الشعب الجديرة بالذكر فى ذلك الوقت طبقة الرقيق ، وقد وصل كثير من هؤلاء العبيد إلى درجة الإمارة ، كما كونوا الدول والدويلات فى عهد السلاجقة ، فقد أسس أبناء انوشتكين الدولة الخوارزمية ، كما أسس ايلدگز دويلة الأتابكة فى آذربيجان — كما مر — .

وقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشاراً كبيراً ، وكانت سمرقند من أكبر أسواق الرقيق ، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها[١] .

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة ازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحياناً على العربيات الحرائر[٢] .

ومن طبقات الشعب فى ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص ٢٦٨

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤

واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الديني ، ويقيمون شعائرهم الدينية فى أمن ودعة ، وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة ، وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعاً من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية فى شعائر أهل الذمة(١) .

وفى القرن الرابع الهجرى ، أصبحت طبقة أهل الذمة ، تضم المجوس ، بعد أن اعترفت الدولة العباسية بأنهم أهل ذمة ، وقد كثر المجوس فى ذلك القرن فى العراق وجنوبى فارس(٢) .

* * *

مظاهر الحياة الاجتماعية :

يسر اتساع الدولة السلجوقية لسلاطينها سبل العيش الرغيد ، فانغمسوا فى الترف ؛ وكان الخلفاء العباسيون — رغم ضعفهم فى ذلك الوقت — يعيشون عيشة تتسم بالبذخ ، وقلدهم الأمراء وكبار رجال الدولة ، فكانوا يسكنون قصوراً تعد مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ؛ تمتاز باتساعها ، وفخامة بنائها ، وما يحيط بها من حدائق غناء .

وكانت قصور سلاطين السلاجقة مضرب المثل فى الروعة

---

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٢٦ .

والجمال ، وكان لهم مجالس للطرب والغناء والشراب ولم تقتصر مجالس الغناء على السلاطين بل تعدتهم إلى الأمراء والوزراء ومن على شاكلتهم من كبار رجال الدولة ، وقد انتشر الغناء نظراً لكثرة الجوارى المدربات على الغناء مما جعل أكثر السلاطين ، وعظماء الدولة يولعون بالشراب وسماع المغنيات(١) .

كما تأنقوا فى الطعام ، وتفننوا فى ألوانه ، وأولعوا بتنوعه ، والإسراف فى إعداده ، وفى تزيين الموائد بالورود والرياحين .

وقد تمتعت المرأة بحظ — لا بأس به — من الحرية فذكر التاريخ أسماء نساء تمتعن بشىء من النفوذ وظهرن على المسرح السياسى ، ولعبن أدواراً سياسية ، واشتركن فى الحروب ، ومن أظهرهن تركان خاتون زوجة ملكشاه المفضلة ، وزبيدة خاتون إحدى زوجات ملكشاه هذا — وهى أم بركيارق ابنه الأكبر — والخاتون زوجة الأتابك جهان پهلوان — كما مر — ؛ وكان تعدد الزوجات من الأمور المألوفة فى تلك الأوقات ، فكثر الأبناء من أمهات مختلفة ، وكان لهذا أثره فى صلات الأبناء بعضهم ببعض ، وفى توجيه الأحداث فى كثير من الأحيان .

وكثرت الجوارى ، وانتشرت مجالس الشراب ، وأصبح للمنادمة أصول ، وصارت مهنة لها أرباب محترفون .

---

(١) ارجع إلى ما كتبه الراوندى فى راحة الصدور عن الشراب ص ٤١٦ — ٤٢٨

وكانت سوق الألعاب الرياضية رائجة ، فكان من الألعاب التى مارسها الناس خارج المنازل الرماية ولعب السيف والترس وسباق الخيل والصيد ولعب الكرة والشطرنج(١) .

ونشطت التجارة والصناعة ، فوصل تجار المسلمين إلى الصين شرقا ، وكان من أهم طرق التجارة طريق الحرير العظيم ماراً بسمرقند وتركستان الصينية وكانت هناك قوافل متعددة لنقل البضائع المختلفة(٢) .

وازدهرت الصناعات اليدوية كصناعة السجاد والنسيج الموشى والحرير والمنسوجات الصوفية وغيرها من أدوات الفرش والأثاث وأوانى المطبخ ؛ وكانت أنوال فارس والعراق الكثيرة تنتج أفخر أنواع السجاجيد(٣) . وقد اشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر وأغطية المقاعد والمساند ، واختصت بخارى بسجادها الفاخر ، كما ازدهرت صياغة الجواهر ، وكان اللؤلؤ ، والياقوت الأزرق والأحمر والزمرد والماس من الأشياء التى يرغب فيها السلاطين والعظماء ؛ ومما ساعد على ترويج هذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن ، فكان الذهب والفضة يوجدان فى

---

(١) ارجع إلى الفصول التى كتبها الراوندى عن المنادمة ولعب الشطرنج والرماية والصيد ، راحة الصدور ، ص ٤٠٥ — ٤٣٧ .

(٢) حتى وجرجى وجبور ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

خراسان كما كان يوجد فيها الرخام والزئبق ، وكان الياقوت واللاجورد يستخرجان من إقليم ما وراء النهر[١] ، ووجد الرصاص والفضة فى كرمان[٢] ، والفيروز فى نيسابور ، واستخرج اللؤلؤ من البحرين .

وقد راجت الزراعة — أيضاً — خصوصاً فى خراسان وسجستان وما وراء النهر ، وعرفت الصناعات الزراعية وخصوصاً صناعة العطر فى إقليم فارس .

والواقع أن مظاهر الحياة الاجتماعية واصلت سيرها الطبيعى بعد تسلم السلاجقة مقاليد الأمور فى إيران والعراق ، غير أن بداوة السلاجقة جعلتهم يهتمون بالمظاهر البراقة كالمبانى الفخمة واللوحات الجميلة ، ومظاهر الترف فى الملبس والحفلات ومجالس اللهو والشراب كما جعلتهم لا يعنون كثيراً بالاستماع إلى الشعر وتذوقه ونقده كما كان يفعل كثير من خلفاء العباسيين مثلا[٣] .

وقد ساعد الحكم السلجوقى على اختلاط العراقيين بالإيرانيين فأدى الامتزاج الحضارى إلى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية بين الطرفين ، كما أدى تعصب السلاجقة للمذهب السنى

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .
(٢) ابن الفقيه الهمدانى : البلدان ، ص ٢٠٦ .
(٣) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

إلى انتشار الكتب العربية فى إيران وكثرة العناصر العربية فى اللغة الفارسية نفسها .

٥ – الناحية الثقافية

مراكز الثقافة :

اتسع أفق الفكر الإسلامى فى عهد السلاجقة اتساعاً كبيراً ، فقد كانت ملكات المسلمين فى البحث والتأليف على درجة عظيمة من النضج كنتيجة طبيعية لحركة الترجمة التى نشطت فى الدولة العباسية ، وكثرة تنقل رجال العلم والأدب فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه فى ذلك الوقت للاتصال بحكام الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ، فنشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط السلاجقة وغيرهم من حكام الدول بالعلماء والأدباء .

كما أدى ظهور كثير من الفرق إلى إيجاد نهضة علمية لأن هذه الفرق اتخذت العلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية ، فكان للجدل الذى قام بين هذه الفرق أثر بعيد فى النهضة العلمية تجلى فى الآثار التى خلفها علماء المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة ، رغم ما أحدثته الفرق من تفكك العالم الإسلامى ، وإضعاف الخلافة العباسية(١) .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

وكان طلاب العلم يجوبون البلاد سعياً إلى موارد العلم والمعرفة ، مما جعل المسلمين — فى ذلك الوقت — يأخذون بحظ وافر من العلوم المختلفة من نقلية[١] وعقلية[٢] .

وتعد المدارس النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى المعروف نظام الملك ، أول نوع — ظهر فى الإسلام[٣] — من المؤسسات العلمية بمعناها الصحيح ، فقد هيأت لطلابها أسباب العيش ، وأصبحت مثالا لما قام بعدها من دور العلم ومراكز الثقافة العالية .

وقد سلك السلاجقة مسلك البويهيين فى رعايتهم للفنون ومناصرتهم للعلوم ، وتنافسوا فى ذلك إرضاء للشعب ، وخصصوا المدارس النظامية لتعليم الفقه ، ولا سيما أصول المذهب الشافعى ، والنظام الأشعرى السنى ، وكان طلابها يتناولون الطعام فيها ، وتجرى على كثير منهم رواتب سنوية .

وكانت المدرسة النظامية فى بغداد مدرسة فقه رسمية اعترفت

---

(١) يقصد بالعلوم النقلية علم التفسير ، وعلم القراءات وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

(٢) تشمل العلوم العقلية الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية .

(٣) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٧٦ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧

بها الدولة ؛ وقد بدئ في بنائها في عام ٤٥٧ هـ[١] (١٠٦٥ م) وكان مدرسها يعين من قبل الخليفة العباسى ؛ ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس فيها الغزالى[٢] ، وقد ذكر فى كتابه « إحياء علوم الدين »[٣] شيئاً عن التربية فندد بالفكرة التى تقول إن هدف التربية هو إدخال الفكرة إلى العقل ودعا إلى وجوب تحريك الشعور الأخلاقى فى الطالب .

وقد بنى نظام الملك مدارس دينية على شاكلة مدرسة بغداد فى المدن الكبرى كأصفهان ونيسابور ومرو ، مما أبقى ذكره كراع من رعاة العلم والثقافة .

وكان علم الحديث أساس التدريس فى جميع هذه المدارس الدينية العالية ، وكان العلماء يعتمدون على الذاكرة فيه إلى حد كبير[٤] .

دور الكتب وحوانيت الوراقين :

اتخذت المساجد مستودعات للكتب ، فكانت خزائنها غنية بالكتب لا سيما الكتب الدينية التى كان الناس يهبونها لها

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .
(٢) ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ج ٩ ص٤٣ — ٤٩
(٤) حِتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٩٧ — ٥٠٠

أو يقفونها فيها على القراء ؛ وكانت هناك خزائن كتب أخرى — شبه عمومية — أنشأها الأغنياء والوجهاء[1] ، وكانت تضم كتباً فى مواضيع متنوعة ؛ كالمنطق والفلسفة والفلك وسواها وكثيراً ما كانت هذه الدور منتدى للعلماء ، يتداولون فيها الأبحاث العلمية والمناظرات الأدبية .

أما حوانيت الوراقين ؛ فكانت دكاكين صغيرة تقام قرب المساجد ، ويجلس فيها باعة الكتب الذين كان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين ؛ غير أن بعض هذه الدكاكين كان من السعة بحيث تعرض فيها الكتب المختلفة ، ويلتقى فيها الخبراء وهواة الدرس ، فأصبحت بذلك مراكز للأبحاث الراقية .

وقد ساعدت دور الكتب وحوانيت الوراقين على رفع مستوى الثقافة ، وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى .

التقدم العلمى :

كان المسلمون — فى عهد السلاجقة — قد وصلوا إلى درجة عظيمة من التقدم فى كثير من العلوم كالطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية ، فقد استفادوا من الترجمة

---

(١) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

والاقتباس من التراثين اليونانى والفارسى ، وهضموا ما فيهما ، ثم أخذوا يستنبطون منهما ، ويضيفون عليهما ، فظهرت مآثر المسلمين فى كثير من العلوم .

ولقد شجع السلطان ملكشاه السلجوقى الدراسات الفلكية ، فأسس مرصداً فى نيسابور فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م)[١] ، اشتغل فيه عمر الخيام مع جماعة من العلماء فى إصلاح التقويم الفارسى ، وتنظيم التقويم المعروف بالتقويم الجلالى ، كما مر[٢] .

وكثرت المؤلفات باللغتين العربية والفارسية فى العلوم المختلفة ، مما جعل الدارسين يلمون بأطراف من مختلف العلوم والفنون فى عصرهم ، ويحرصون على إظهار ذلك فى كتاباتهم ، وراجت هذه الظاهرة عند العلماء والكتاب والشعراء[٣] ، فأصبحت دليلا على مبلغ ما وصل إليه العلم من تقدم عند المسلمين عامة فى أثناء الحكم السلجوقى[٤] .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٧ هـ

(٢) انظر ص ٨٣ — ٨٤ من هذا الكتاب .

(٣) نظامى الكنجوى للمؤلف ص ١١٤ — ١٢٣

(٤) هذا موضوع يضيق مجال هذا الكتاب عن استقصاء البحث فيه ، ويمكن الرجوع إلى كتاب حتى وجرجى وجبور ، تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ — ٤٩٤ للإلمام بفكرة عنه

٦ — الناحية الفنية

فنون النقش والتصوير والمعمار :

ارتقت الفنون فى عصر السلاجقة ارتقاء ملحوظاً ، فازدهرت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمار لأن السلاجقة ، كانوا يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها[1] .

وكان لبداوة السلاجقة أثر فى ازدهار الفنون ، فقد شغفوا بالمبانى الفخمة ، والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فكانت تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسد ما فى نفوسهم من فراغ ، وكان سلاطين السلاجقة أنفسهم يحمون الفنون ، ويشجعون المشتغلين بها[2] ؛ — كما ذكرنا — فبقيت روائع الفن الإيرانى منذ عهد السلاجقة ، حتى إن كثيرا من العلماء ليعتقدون أن الفن الإسلامى قد وصل إلى أعلى درجاته فى عهدهم ، وأن الآثار الباقية ، منذ هذا العهد قليلة النظير فى تاريخ الفن الإيرانى[3] .

وقد نقلت فتوحات السلاجقة أصول الفن الإيرانى إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وشمالى إفريقية فشوهدت سمات

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٢

(٢) M. S. Dimand : A Handbook of Mohmmadan Art, p. 173

(٣) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٢

من الفنون الإيرانية فى عصر السلاجقة فى الآثار المصرية والسورية بعد ذلك بعدة قرون ، وبقى الفن الإيرانى حياً مقروناً بالعشق والابتكار فى داخل إيران وخارجها[١] .

وقد تأثر الفن الإسلامى فى الدولة العباسية بالفن الفارسى تأثراً عظيما ، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ؛ كما كانت طبقاتها مغطاة بستور الديباج مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى[٢] .

وكان الفرس منذ أقدم العصور أساتذة فى فن الزخرفة والتلوين ، وقد ارتقى هذا الفن فى عصر السلاجقة كما ارتقى فن زخرفة السجاد ، واتخذت مشاهد الصيد والحدائق لرسمها على السجاد ، واستعمل حجر الشب لتثبيت الألوان[٣] .

وقد ازدهر فن الخط أيضاً ؛ وهو فن إسلامى خالص كان من أغراضه أن يخلد كلام الله فى الصحف ، ومن هنا استمد مكانته ، فكان للخطاطين مكانة وكرامة ، وكان السلاطين

---

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنايع إيران ، ص ١٤٣

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٠٥

(٣) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩

والأمراء يسعون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن ، كما ارتقت الفنون المتصلة به كالزخرفة بالألوان وتزيين الكتب والتذهيب ، وصناعة التجليد لعلاقتها بكتاب الله ، وراج فن زخرفة الكتب وتزيين المصاحف فى العصر السلجوقى .

وقد ذكر الراوندى أنه تعلم سبعين نوعاً من الخط وأتقن فن تذهيب المصاحف وتجليدها ، وكان يكسب قوته من هذا الطريق ، كما استطاع به أن يلتحق بخدمة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين سلاجقة العراق[١] ، مما يدل على رواج فن الخط وأهميته فى العصر السلجوقى .

* * *

فن الأدب :

لم يكن سلاطين السلاجقة يتذوقون الأدب الفارسى لأنهم لم يكونوا على حظ وافر من الثقافة[٢] ، ولكن فن الأدب الفارسى ارتقى فى عصرهم ، لأن الأدب كغيره من مظاهر الحضارة يخضع لسنة التطور .

وقد بدأ الأدب الفارسى الإسلامى تطوره منذ القرن الثالث

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٤٠ — ٤٤

(٢) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٧

الهجرى ، فلما أدرك عصر السلاجقة كان فن صناعته قد ارتقى إلى حد كبير .

ونشرت فتوحات السلاجقة اللغة الفارسية فى آسية الصغرى ، فأصبحت بلاد الفارسية تمتد من الهند شرقاً إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً ، وظهرت أهميتها فى بلاد كانت فيها آداب قومية ، كبلاد الأرمن وجورجيا ، فبدت آثارها فى هذه الآداب[1] .

كما ظهر لون جديد من ألوان الأدب هو أدب المدينة أنتجته ظاهرة اجتماعية — أشرنا إليها — هى ظهور المدينة كبيئة مستقلة لها خصائصها ومميزاتها ، وهى ظاهرة تنبه لها القدماء ، نقسم بعضهم الآداب بحسب المدن[2] .

وقد اجتهد حكام المدن فى جمع الشعراء والكتاب حولهم ، حتى يظفروا بمدحهم والتغنى بفضائلهم ، غير أن آداب المدن كانت خاضعة لتأثير آداب البلاط ، فكان شعراء المدن وكتابها يستعملون الأسلوب الذى يستعمل فى مدح السلاطين فى مدح حكام المدن بنفس الطريقة تقريباً ، غير أن آثار المدينة وما فيها من

---

(١) برتلس : نظامى ، ص ١٦ — ١٧

(٢) قسم عوفى فى لباب الألباب ولطفعلى بيك فى آتشكده الشعراء بحسب المدن .

عادات وتقاليد كانت تظهر فى أشعار شعرائها ، وكتابات كتابها بين الحين والحين [١] .

وبقيت الآداب السلطانية — فى العصر السلجوقى — دون تغيير كبير ، غير أن حياة شعراء البلاط وكتابه لم تكن خالية من المتاعب نظراً لقيامهم بأدوار سياسية فى كثير من الأحيان [٢] .

وقد أثرت روح العصر السلجوقى ؛ وما ساد دولتهم من فتن — فى أثناء مراحل الضعف السياسى — فى إبراز ظاهرة الوصولية والأنانية بين كثير من الكتاب والشعراء ، فكانت الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، مما جعل التلاميذ يهجون أساتذتهم ، ويشون بهم فى سبيل الظفر برضا البلاط وشق الطريق فيه لأنفسهم ؛ وقد أحس كثير من الشعراء والكتاب بما فى حياة البلاط من كذب وزيف ونفاق فنفروا منها وابتعدوا عنها ، وأحسوا بأن أدب البلاط أدب تختفى فيه شخصياتهم لتظهر شخصيات الممدوحين ، محاطة بهالات من العظمة الكاذبة القائمة على المبالغة والتهويل [٣] .

---

(١) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٨٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٦١ — ٦٢

(٣) ارجع إلى أمين رازى : هفت إقليم ، ص ٥١٠ ، ٥١٧ ا ، ٥٢١ ا

وقد برع شعراء البلاط فى فن القصيدة ، وكان الأنورى شاعر السلطان سنجر من أبرع شعراء هذا الفن[١] .

كما راج فن القصص المنظومة بالفارسية فى العصر السلجوقى ، وبلغ درجة عظيمة من الإتقان والجودة ، وكان من أبرع شعراء هذا الفن نظامى الگنجوى ، فكان يحسن اختيار موضوع القصة ، ويجيد تصوير مناظرها ، ويجعل هذه المناظر متنوعة مع الجدة والابتكار وخلق المشاكل ليكسب القصة عنصر الطرافة والتشويق ، كما كان يتخذ القصة ميدانا للدعوة إلى الإصلاح الخلقى وتطهير النفوس ، وترك الظلم ، والتطلع إلى المثل العليا[١] .

وتطور فن الكتابة فى العصر السلجوقى ، فأصبحت « المقامة » ضمن فنون النثر الفارسى ، ومن أشهر كتاب المقامات بالفارسية — فى ذلك الوقت — القاضى حميد الدين عمر بن محمود البلخى المتوفى سنة ٥٥٩ هـ (١٠٦٧ م)[٣] .

والواقع أن فن الأدب فى عصر السلاجقة قد امتاز بما امتازت به الفنون عامة من ميل إلى التأنق والتفنن ، فكان الشاعر أو الناثر لا يكتفى بصب أفكاره فى قوالب جميلة من الألفاظ ، بل

---

(١) ارجع إلى نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ — ٢٨١ .

(٣) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ — ٣٤٤ .

يحاول أن يرسم على هذه القوالب من النقوش والزخارف ما يجعل منظرها رائماً جميلا ، فامتلأ الأدب بالمحسنات اللفظية والتشبيهات والاستعارات والكنايات وما شابهها ، وأصبح القول فنا كغيره من الفنون .

وراقت هذه الأشياء فى أعين الناس والحكام ، واستحسنتها أذواقهم ، فأكثر الشعراء والكتاب منها فى آثارهم[(١)] .

وهكذا كان العصر السلجوقى عصر رواج وازدهار للفنون بمختلف ألوانها .

---

(١) لا أجد ضرورة لذكر أمثلة شعرية ونثرية بالفارسية فى هذا المجال لأن الغرض هنا التعريف بفن الأدب فى العصر السلجوقى ، ومعرفة الاتجاهات الأدبية بصفة عامة كوسيلة لفهم طابع هذا العصر من الناحية الفنية ، كما أن مجال الكتاب لا يسمح بذكر النصوص ، ويستطيع من يريد الاستزادة فى هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب نظام الكنجوى للمؤلف ، فإنه يلقى ضوءا على جوانب الموضوع .

ثبت بأسماء المراجع[1]

(ا) المراجع العربية

ابن الأثير : على بن أحمد أبى الكرم

١ — الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ١١ ، ١٢ طبع تورنبرج ١٨٥١ م أو ج ، ٨ ، ٩ طبع القاهرة

البندارى : الفتح بن على بن محمد البندارى الإصفهانى

٢ — مختصر تواريخ آل سلجوق نشر هوتسما ، طبع ليدن ١٨٨٩ م

البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد

٣ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبع ليبزيج سنة ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م

الحافظ الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى

٤ — تاريخ الإسلام الذهبى ، طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧ هـ

(١) أذكر هنا أهم المراجع ، وقد وردت هى وغيرها فى ثنايا الكتاب ، وهى جميعا منشورة يستطيع الدارس الرجوع إليها بسهولة .

حتى وجرجى وجبور : فيليب حتى وادورد جرجى وجبرائيل جبور

٥ — تاريخ العرب ، ج ٢ طبع بيروت ، ١٩٥٠ ، وج ٣ طبع بيروت ١٩٥١ م

حسن إبراهيم حسن

٦ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ٣ ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥٥ م

الحسينى : صدر الدين أبو الحسن على السيد الإمام الشهيد أبو الفوارس ناصر بن على الحسينى

٧ — أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، طبع لاهور ، ١٩٣٣

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد

٨ — مقدمة ابن خلدون ، طبع بيروت ، ١٨٨٦ م

٩ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، طبع القاهرة ١٢٨٤ هـ

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشامى

١٠ — وفيات الأعيان ، طبع بولاق ، ١٢٨٣ هـ

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

١١ — الملل والنحل ، ٥ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٣١٧ ﻫ

عبد النعيم محمد حسنين

١٢ — نظامى الگنجوى ، شاعر الفضيلة الإيرانى ، طبع القاهرة ، ١٩٥٤ م

ابن العبرى : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المعروف بابن العبرى .

١٣ — تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ١٨٩٠ م

ابن العماد : أبو الفلاح بن العماد الحنبلى

١٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ٥ ، طبع مصر ، ١٣٥٠ ﻫ

الغزالى : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

١٥ — إحياء علوم الدين ، طبع القاهرة ، ١٣٣٤ ﻫ

١٦ — تهافت الفلاسفة ، طبع بمباى ، ١٣٠٤ ﻫ

أبو الفدا : الملك المؤيد أبو الفدا صاحب حماة

١٧ — تاريخه المسمى المختصر فى أخبار البشر ، طبع استانبول ، ١٢٨٦ ﻫ

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى

١٨ — آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر وستنفلد ، طبع جوتنجن ، ١٩٤٨ م

القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف القفطى

١٩ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبع مصر ، ١٣٢٦هـ

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزه

٢٠ — ذيل تاريخ دمشق ، طبع بيروت ، ١٩٠٨ م

ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى

٢١ — تاريخه ، ج ٢ ، طبع مصر

(ب) المراجع الفارسية

أفضل الدين الكرمانى : أبو حامد أحمد بن حامد الكرمانى

٢٢ — عقد العلا للموقف الأعلى ، نشر على محمد نائينى ، طبع طهران ، ١٣١١ هجرية شمسية[1] .

---

(١) التقويم الهجرى الشمسى هو التقويم المستعمل فى إيران ، وتبدأ السنة الهجرية الشمسية فى ٢١ مارس غالبا وعدد أيامها ٣٦٥ يوم إذا كانت بسيطة و ٣٦٦ إذا كانت كبيسة ؛ ولذلك فإن سنة ١٣٧٨ هـ تقابل ١٣٣٧ هجرية شمسية تقريبا ، وقد رمزنا للتقويم الهجرى الشمسى بـ . هـ ، ش فيما بعد .

٢٣ — تاريخ أفضل يا بدايع الزمان فى وقايع كرمان ، جمع ونشر مهدى بيانى طبع طهران ، ١٣٢٦ هـ . ش

أمير خواند البلخى : محمد بن خاوندشاه بن محمود

٢٤ — روضة الصفا ، الجزء الرابع ، طبع طهران ، ١٢٧٠هـ

أمين رازى

٢٥ — هفت إقليم ، طبع كلكته ، ١٩٣٩ م

بهار : محمد تقى بهار ملك الشعراء

٢٦ — سبك شناسى ، ج ٢ ، طبع طهران ، ١٣٢١.هـ.ش

ابن البيبى : يحي بن محمد المعروف بابن البيبى

٢٧ — مختصر سلجوقنامه ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٩٠٢ م

البيهق : أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب البيهق

٢٨ — تاريخ مسعودى ، المعروف بتاريخ البيهق ، نشر سعيد نفيسى ج ١ طبع طهران ١٣١٩ هـ . ش ، ج ٢ طبع طهران ١٣١٦ هـ . ش .

وقد ترجم إلى اللغة العربية ، ترجمه الأستاذان يحي الخشاب وصادق ونشأت وطبع فى القاهرة

حمد الله المستوفى قزوينى : حمد الله بن أبى بكر بن أحمد بن نصر المستوفى القزوينى

٢٩ — تاريخ گزيده ، ج ١ ، نشر براون ، طبع ليدن ، ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م

خواند امير : غياث الدين بن همام الدين

٣٠ — حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، طبع بمباى ١٢٧٣ هـ — ١٨٥٨ م

الراوندى : محمد بن على بن سليمان الراوندى

٣١ — راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد إقبال ، طبع ليدن ، ١٩٢١ م

وقد ترجم إلى العربية ، ترجمه الأساتذة إبراهيم أمين الشواربى وعبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد : وهو يطبع الآن فى القاهرة .

عوفى : محمد عوفى :

٣٢ — لباب الألباب ، ج ٢ ، نشر براون ، طبع ليدن ، ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م

قاسم غنى :

٣٣ — تاريخ تصوف در إسلام ، طبع طهران ، ١٣٦٢ هـ — ١٣٢٢ هـ . ش

كريستى ولسن

٣٤ — تاريخ صنايع إيران ، ترجمة عبد الله فريار الفارسية ، طبع طهران ١٩٣٨ م = ١٣١٧ هـ . ش

گرديزى : أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود الگرديزى

٣٥ — زين الأخبار ، طبع برلين

٣٦ — مجمل القصص والتواريخ (مجهول المؤلف ويبدو أنه مؤلف فى القرن السادس الهجرى) نشر بهار ، طبع طهران ، ١٣١٨ هـ . ش

محمد بن إبراهيم :

٣٧ — تاريخ سلجوقيان كرمان ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٨٨٦ م

(ح) المراجع الإنجليزية

Browne : Edward G.

A Literary History of Persia (From the Earliest Times untit Firdawsi) London, 1909. – ٣٨

Dimand : M. S.

A Hand book of Mohammadan Art, New york, 1947. – ٣٩

Lone - Poole :

Mohammadan Dynasties, London, 1894, Paris, 1925. – ٤٠

Sykes : SirPercy

A History of Persia, Vol. II, London, 1930. – ٤١

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية لا تخفى على فطنة القارئ أذكر أهمها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٧	واتنجاعا	وانتجاعا
٤	٩	١٣٨٧ هـ	١٣٧٨ هـ
٧	١١	التصرف	التصوف
١٠	٢	فى تلك الحملات	فى تلك الجهات
١١	٣	لم ثلبث	لم تلبث
١٩	٢	الندواة	البداوة
٢٦	٢	إلى السلطان	السلطان
٥٨	١٦	مما يساعد	مما ساعد
١٠٠	٧	فأرسل فى المحرم	فى المحرم
١٠٧	٢ من الحاشية	ابن القلانس	ابن القلانسى
١١٤	١٣	ستطاع	استطاع
١٢٧	٥	سلطنته على العراق	إقرار سلطنته على العراق
١٣٧	٣ من الحاشية	١٦٧–١٨٤ قوبخى	١٨٣
١٣٨	٣	جميعها	جميعا
١٤٧	١١	اضطراب (١)	اضطراب (٢)
١٤٧	١ من الحاشية	(٢)	(١)
١٤٧	٢ من الحاشية	(١)	(٢)
١٥٩	٢ من الحاشية	تكن	تكش
١٨٢	١٤	والتعصب	التعصب
١٨٨	٢ من الحاشية	المقدس	المقدسى

المكتبة التاريخية

صدر منها :

١ — المجمل فى تاريخ الأندلس :

للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى

٢ — الإسلام فى إسبانيا :

للدكتور لطفى عبد البديع

٣ — التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر :

للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

٤ — طائفة الإسماعيلية . تاريخها ونظمها وعقائدها :

للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

٥ — الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان :

للدكتور جلال يحيى

٦ — الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى :

تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

٧ — سلاجقة إيران والعراق :

للدكتور عبد النعيم حسنين

يصدر قريبا :

١ — موجز تاريخ الاشتراكية : تأليف نورمان ماكنزى

ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميليه

٢ — أوغندا بين الاستعمار البريطانى والكفاح الوطنى :

للأستاذ محمد عبد المنعم محمود

٣ — المغول فى التاريخ :

للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد

٤ — تاريخ إمبراطورية الروم : تأليف شارل ديل :

ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيره

٥ — سعد بن أبى وقاص :

للأستاذ عبد القادر طليمات

٦ — تطور المسألة المصرية :

للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٧ — داود باشا آخر المماليك :

للأستاذ عبد العزيز سليمان نوار

٨ — عمان ماضيها وحاضرها :

للأستاذ جمال زكريا قاسم

٩ — مصر كما صورها هيرودوت :
تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد بدوى والدكتور صقر خفاجة .

١٠ — غرب أفريقية بين العروبة والاستعمار :
للأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل

١١ — الجبرتى وعصره :
للأستاذ عبد القادر طليمات

١٢ — مدخل للحضارة الإسلامية :
للدكتور محمد العلائى

١٣ — ثورة إفريقية :
للدكتور محمد أنيس

١٤ — القاهرة والحياة الاجتماعية فيها فى عصر الأتراك العثمانيين :
للأستاذ حسن عبد الوهاب

١٥ — قناة السويس :
للدكتور عبد العزيز الشناوى

١٦ — الإقطاع فى أوربا : تأليف جيزنهوف :
ترجمة الدكتور حسن حبشى

١٧ — فتح العرب فارس :
للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف

١٨ — سيف الدولة الحمدانى :
للأستاذ مصطفى الشكعة
١٩ — نظم الحكم عند اليونان والرومان :
للدكتور لطفى عبد الوهاب
٢٠ — صور من الحياة فى مصر فى عصر الرومان :
للدكتور عبد اللطيف أحمد على
٢١ — قصة التصوير فى الإسلام :
للدكتور جمال محرز
٢٢ — التاريخ . فلسفته وأهدافه :
للأستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان
٢٣ — ماتزينى :
للأستاذ محمود الخفيف
٢٤ — مصر وأفريقية فى العصور القديمة :
للدكتور أحمد فخرى
٢٥ — مصر وأفريقية فى العصور الوسطى :
للدكتور حامد مصطفى عمار
٢٦ — مصر وأفريقية فى العصر الحديث :
للدكتور على إبراهيم عبده
٢٧ — أوليفر كرمويل والثورة الإنجليزية :
للأستاذ أحمد خاكى

٢٨ — كفاح مسلمى القوقاز ضد الاستعمار الروسى :

للأستاذ ابرهيم عبد التواب وزميله

٣٩ — الصومال :

للدكتور جلال يحيي

٣٠ — باكستان دولة جديدة وشعب قديم :

للدكتور حسن حبشى

٣١ — حركات التسلل ضد القومية العربية :

للدكتور إبراهيم أحمد العدوى .

الكتاب التالى :

موجز تاريخ الاشتراكية

تأليف ماكينزى

وترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميله

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا - القاهرة